استشراف المستقبل في القصة القرآنية
وأثره في البناء السردي
دراسة تحليلية

إعداد

د/ محمد جبريل أبو الفتوح حمودة

مدرس الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود

استشراف المستقبل في القصة القرآنية وأثره في البناء السردي "دراسة تحليلية"

محمد جبريل أبو الفتوح حمودة
قسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية
البريد الإلكتروني: mohamadjbryl.2034@azhar.edu.eg

المُلخَّص :
يهدف هذا البحث إلى بيان أثر الاستشراف في البناء السردي للقصة القرآنية، لما له من أهمية كبرى في ترابط أجزائها من خلال ربط الوحدات الزمنية ببعضها، والإخبار بالمستقبل وما يقع فيه، والتنبؤ بمجريات الأحداث من خلال أشكال سردية متنوعة، وأنماط حكائية فريدة من نوعها، تعمل على جذب المتلقي، ودفعه إلى الولوج في تضاعيف النص. وقد امتازت تلك الاستشرافات في القصة القرآنية بخصائص فنية فريدة؛ حيث لم تكن مهمتها الإخبار عن هذا المستقبل فحسب، بل عملت على التمهيد للقصة، أو التمهيد لدخول شخصيات العمل السرد، وتهيئة الفضاء السردي لهم بطريقة فنية بما يمنع المفاجأة السردية المقيتة غير المبررة، فضلاً عن دورها المهم في تهميش شخصيات أخرى، أو إعادة تأهيلهم إلى العمل من جديد. ومن ثم، فقد وقفت مع هذه الاستشرافات القصصية في ثلاثة مباحث جاءت كالتالي: الأول: تتبعت فيه مصادر هذه الاستشرافات التي جاءت متنوعة ما بين رؤى منامية، أو جاءت على لسان شخصيات العمل، أو جاءت بطريقة مباشرة من الله سبحانه. الثاني: تتبعت فيه أهداف ووظائف الاستشراف التي جاءت متعددة، تسهم في بناء هذه الأحداث، وتساعد على نمائها نماء بأسلوب قرآني معجز. الثالث: تتبعت فيه سمات هذه الاستشرافات التي وردت في القصة القرآنية من لغة حوارية مشهدية تحكي الأحداث وكأنها تجري أمام عين المتلقي، ليتفاعل معها ويشارك في صنعها من خلال توقعها، أو من خلال ربط أجزاء العمل ببعضها في لحمة سردية متماسكة، أو تلخيص فترات زمنية في حياة الشخصيات، وإهمال الأحداث الهامشية التي لا تسهم في بناء الأحداث، والنص على تلك النقاط المضيئة في عملية السرد وحياة الشخصيات. إن هذه الاستشرافات استطاعت أن تكشف عن مكونات الشخصيات، وبيان مشاعرهم؛ لأنها أداة زمنية في المقام الأول تسهم مساهمة فاعلة في الكشف عن طبيعة هذه الشخصية والبناء الفاعل لمكونات العملية السردية.

الكلمات المفتاحية: استشراف، القصة القرآنية، السرد، بيان أثر الاستشراف، دراسة تحليلية.

Showing the future in the Quranic story and its impact on narrative construction "An Analytical study"

Mohammad Jibril Abu Al-Fattouh Hamuda
Department of Literature and Criticism at the Faculty of Arabic Language in Itai El-Baroud, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: mohamadjbryl.2034@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to demonstrate the impact of foresight in the narrative structure of the Quranic story, as it plays a major role in linking its parts through connecting temporal units, informing about the future and its events, and predicting the course of the events through various narrative forms and unique storytelling patterns. These techniques work to attract the reader and encourage them to delve into the text. The foresights in the Quranic story are characterized by unique artistic features, as their role was not only to predict the future, but also to prepare the story, or to introduce characters into the internal narrative and artistically set the narrative space for them, preventing any unexpected or unjustified narrative surprises. They also serve an important role in marginalizing certain characters or reintroducing them into the narrative. This research addresses these narrative foresights in three sections: the first traces their sources, including dream visions, character dialogues, or direct narration from God. The second examines the goals and functions of foresight, contributing to the building of events and their growth in a miraculous Qur'anic style. The third discusses the features of these foresights, which are presented through dialogical and visual language that depicts events as if they were unfolding before the reader's eyes, enabling them to interact and participate in the creation of the events by anticipating them or linking the narrative parts in a coherent structure. This section also focuses on summarizing time periods in the lives of characters, disregarding irrelevant events that do not contribute to the story, and highlighting key moments in the narrative and characters' lives. These foresights effectively reveal the characters' makeup and emotions, serving as a temporal tool that actively contributes to uncovering their nature and constructing the elements of the narrative process.

Keywords: Anticipation, Quranic Story, Narration, Explanation Of The Impact Of The Anticipation, An Analytical Study.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن، فجعل منه قصصًا ذوات أفنان، فأعجز ببلاغته الإنس والجان. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، أفصح من نطق بالضاد من ولد عدنان، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. أما بعد:

فالقصة القرآنية تُعَدُّ إحدى أرقى وأعمق الأشكال التعبيرية التي استخدمها القرآن الكريم في العديد من سوره؛ إذ تجسد مزيجًا فريدًا من التأثير الديني، والأخلاقي، والتربوي. فهي لم تكن مجرد سرد للأحداث، بل غدت أداة حيوية تهدف إلى تعزيز موقف النبي ﷺ، وتأكيد نبوته أمام خصومه الذين لم يَفْتُروا عن محاربته بكل ما أُوتوا من قوة، أو استطاعوا من وسائل. ومن ثم، جاءت القصة القرآنية في أكمل صورها بلاغة، وأتمّ أشكالها إحكامًا، وأوفى معانيها تناسقًا؛ لتظهر في أبهى تجلياتها، مبرزةً تنوع القرآن في التعبير بصيغ متعددة تلائم الحالات النفسية المختلفة للمخاطَبين، وتفاوتهم المعرفي والثقافي.

ولم يكن الإعجاز في القصة القرآنية محصورًا في جانب واحد فحسب، بل امتدَّ ليشمل جميع مظاهرها التعبيرية والفنية، مما جعلها إحدى اللبنات الرئيسة في بناء هذا الكتاب المعجز، وحجة دامغة يتحدى بها المعاندين الذين عجزوا عن الرد عليها أو حتى إيقاف تأثيرها العميق في نفوس العرب وغيرهم من الأمم. فقد شهدوا تجليات بلاغتها وشمول بيانها في كل جزئية من جزئياتها التعبيرية والفنية.

ومن أبرز الأدوات التي استعانت بها القصة القرآنية لتحقيق هذا الإعجاز: استشراف المستقبل والإخبار بما سيحدث فيه، وهو ما يضيف بُعدًا إعجازيًا للبيان القرآني من خلال التنبؤ بما هو آتٍ بشكل يتطابق مع الواقع، ويرتبط به ارتباطًا عضويًا. غير أن وظيفته تتعدى مجرد الإخبار؛ فهو يكتسب أهمية أكبر في تفعيل البناء السردي للقصة، إذ يسهم في تهيئة

الأحداث، وتحديد أبرز الشخصيات، وبناء الأحداث بشكل تصاعدي يضمن انتقالها إلى ذروتها. كما يمهد لدخول شخصيات جديدة، ويختصر فترات زمنية طويلة، ليخدم بذلك تدفق السرد، ويمنح القصة بُعدًا ديناميكيًا من خلال تعدد الأشكال التعبيرية للاستشراف القرآني الذي يعمل على خدمة البناء السردي؛ إذ جرى استخدام أساليب متنوعة، ما بين رؤى منامية، وأنماط حوارية، وأساليب ترميزية، وإشارات خاطفة، فضلًا عن التكثيف والتركيز في بعض اللحظات الحرجة، مما يخلق تفاعلًا دراميًا مؤثرًا في المتلقي، ويدفعه إلى الولوج إلى أعماق النص والتفاعل معه على مستويات متعددة.

وتتسم هذه الاستشرافات القرآنية بخصوصية فريدة تميزها من خلال تماسها مع الواقع، والتعبير عنه تعبيرًا حقيقيًا، مما أعجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله، فأصبح دليلًا قاطعًا على إعجاز القرآن الكريم. على عكس الاستشرافات البشرية، التي تعتمد على الظن والتخمين والحدس، فهي لا تعكس واقعًا حقيقيًا ولا تحاكي مشهدًا عيانيًا. ولعل هذا هو السبب في ندرة هذه الظاهرة في النصوص البشرية الحديثة، مقارنةً بتقنيات الاسترجاع التي غالبًا ما ترتكز على الماضي.

<u>وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع عدة دوافع تتعلق بأبعاد فنية ونقدية، منها:</u>

- **أثر الاستشراف في البيان القرآني بشكل عام، وفي القصة القرآنية بشكل خاص**، حيث يُعد هذا العنصر الفني من أعمق وأهم الأدوات التي استخدمها القرآن لتحقيق تماسك السرد وضمان تأثيره العميق على المتلقي، مما يجعل من دراسة هذا الجانب أمرًا ذا أهمية بالغة لفهم العلاقة بين الشكل السردي والمضمون القرآني.

- **ندرة الدراسات الأدبية وغيرها التي تناولت دور هذه التقنية في البيان القصصي**، مما يجعل هذا الموضوع مجالًا خصبًا لدراسة جوانب فنية وأسلوبية جديدة يمكن أن تسهم في إثراء المكتبة النقدية، وفتح آفاق لفهم أعمق للخطاب القرآني.
- **تنوع الأساليب التي جاء بها الاستشراف القرآني الكريم**، حيث استخدم القرآن هذه التقنية عبر أساليب متعددة تعكس عظمته البلاغية، وتبين كيف ساهمت هذه الأساليب في تشكيل القصة القرآنية بكل تفاصيلها.

وتهدف هذه الدراسة إلى:

- **استكشاف الأساليب القرآنية المتنوعة في إيراد الاستشرافات القصصية**، مع التركيز على كيفية توظيف القرآن الكريم لهذه التقنية بلغة بيانية بليغة ومؤثرة، تكشف عن دلالاتها العميقة وأبعادها المتعددة في السرد القرآني.
- **تحليل دور الاستشراف القرآني في بناء القصة القرآنية**، وتوضيح كيف أسهمت هذه التقنية في ترابط الأحداث والشخصيات، وفي إبراز الأبعاد الغيبية والمستقبلية التي تؤثر في تسلسل السرد وتوجيهه.
- **مناقشة أثر الاستشراف القصصي في باقي عناصر القصة القرآنية**، مع التركيز على تأثيره في تطوير الشخصيات، التمهيد للأحداث، وتوجيه النص في اتجاهات تخدم البناء السردي ككل.

الدراسات السابقة:-

حظيت القصة القرآنية باهتمام واسع من الباحثين على مر العصور، إذ تطرقت العديد من الدراسات إلى جوانب متعددة في المنظومات الدينية، والتربوية، والأخلاقية، والاجتماعية. ومع ذلك، سنقتصر في هذه الدراسة على استعراض بعض الأبحاث التي تناولت موضوع الزمن بشكل خاص، نظرًا لارتباطه الوثيق بمحور بحثنا. وفيما يلي، نستعرض أبرز هذه الدراسات:

أولًا: دراسة "**الزمن في القصة القرآنية: دراسة فنية تحليلية** " للباحثة إسراء محمد عليان علاونة، وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى الجامعة الأردنية عام ٢٠١٣. في هذه الدراسة، ابتعدت الباحثة عن تناول الاستشراف بشكل مباشر، إذ ركزت بحثها على مفهوم القصة القرآنية وأهدافها، وتعريف الزمن، والألفاظ الدالة عليه، وقيمته الدلالية، فضلًا عن استعراض أساليب القصة القرآنية في معالجة هذا العنصر الزمني.

ثانيًا: دراسة "**مفهوم الزمن في القرآن الكريم**" للأستاذ محمد بن موسى بابا عمي، التي صدرت عن دار الغرب الإسلامي في بيروت عام ٢٠٠٠. تناول الكاتب في هذه الدراسة مفاهيم شاملة تتعلق بالزمن، مثل الأيام، الأسابيع، الشهور، الفصول، بالإضافة إلى وحدات قياس التاريخ، وعلاقة الشمس والقمر بالحركة الزمنية. كما تناول أنواع الزمن من زاوية نفسية ونسبية، وعقد مقارنة بين التنبؤات البشرية والتنبؤات القرآنية. ومع ذلك، لم يتطرق إلا إلى نموذج واحد في سورة يوسف، مما يجعل دراسته تختلف اختلافًا جوهريًا عن هذه الدراسة.

ثالثًا :دراسة "**البنية الزمنية في القصة القرآنية: الاسترجاع والاستباق**" للدكتور بشار إبراهيم نايف، التي صدرت عن دار الكتب العلمية في بيروت عام ٢٠١١. ناقش فيها الكاتب الاستشراف من منظور نظري، مستعرضًا مداه الخارجي والداخلي، وسعته الزمنية، ووظائفه التقليدية، بالإضافة إلى المفارقات المعقدة. ومع ذلك، لم يربط بين الاستشراف والعناصر الأخرى في السرد القرآني، ولم يتوقف عند الوقفات التحليلية التي تكشف عن أثر هذا الاستشراف أو سماته الفنية، مما يجعل دراستنا هذه متميزة عن المادة التي قدمها الدكتور نايف – جزاه الله خيرًا ونفع بعلمه.

<u>وفي دراستي للاستشراف في القصة القرآنية، اعتمدت على منهج تحليلي شامل</u> يجمع بين التحليل السردي للقصة القرآنية والاستعانة بالعلوم الأخرى، مثل البلاغة والتفسير الموضوعي، مع التركيز على الأبعاد الزمنية والرمزية، مما يعزز فهم الاستشراف القرآني بشكل أعمق.

وقد اقتضت مادة الدراسة أن يكون هذا البحث في توطئة وثلاثة مباحث، مسبوقًا بمقدمة، ومنتهيًا بخاتمة سجلت فيها أهم النتائج والتوصيات:

- **المقدمة:** أشرت فيها إلى أهمية الموضوع، وأسباب اختيار الموضوع وأهدافه، والخطة التي سرت عليها، والمنهج الذي اتبعته.
- **المبحث الأول: (مصادر الاستشراف في القصة القرآنية) ويحتوي على:**

- الرؤى المنامية.
- شخصيات العمل القصصي.
- الخطاب الإلهي المباشر.

- **المبحث الثاني: (بواعث الاستشراف وأهدافه في القصة القرآنية) ويحتوي على:**

- التمهيد للقصة القرآنية.
- التمهيد لوقوع الأحداث اللاحقة.
- التمهيد لإدخال شخصيات جديدة في مجريات الأحداث.
- التنبؤ بمصير الشخصيات داخل القصة.
- سد الفجوات الحكائية.

- **المبحث الثالث: (سمات الاستشراف وخصائصه الفنية) ويحتوي على:**

- ربط العمل السردي.
- مشهدية الاستشرافات في القصة القرآنية.
- تلخيص فترات زمنية في حياة الشخصيات.
- التأثير في الشخصيات وحتمية الوقوع.

ثم تأتي الخاتمة، التي تُسجَّل فيها أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، ويعقبها فهرس المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات. والله أسأل أن يتقبله في الصالحات، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

توطئة

يحظى الزمن بمكانة رفيعة في الأعمال السردية بمختلف مضامينها وتنوع فروعها واختلاف مصادرها الثقافية والأيديولوجية، فهو العنصر المحوري الذي يشد أواصر النص الداخلي ويمنحه تماسكًا متينًا؛ حيث يمثل الإطار الذي يربط بين الوحدات الزمنية المختلفة ويُبنى من خلالها أحداث القصة بشكل فاعل ومتصاعد، مما يضمن استمرارية الحدث وتناميه عبر الزمن. ومن خلال هذا البناء، يصبح العمل الأدبي قادرًا على التعبير عن ذاته بوضوح، إذ يتفاعل الزمن بانسجام مع باقي عناصر السرد من شخصيات وأماكن وأحداث، ليحقق الهدف الأسمى الذي كُتبت من أجله تلك الأعمال، ويمنحها بُعدًا حيويًا يجعلها تنبض بالواقعية والتفاعل المستمر، لأن "القصة تُصاغ في داخل الزمن، والزمن يُصاغ في داخل القصة"(١)، الأمر الذي يعكس الترابط القوي بين الزمن والأعمال الأدبية عمومًا والعمل القصصي على وجه الخصوص.

غير أن تقديم الزمن على الورق يختلف اختلافًا كبيرًا عن حقيقته في أرض الواقع؛ لأنه يخضع في صورته الحقيقية (زمن القصة الحقيقي) للتتابع المنطقي في سرد حلقاته، والسير في خط أفقي واحد، وهو أمر غير ممكن تحقيقه في شكله الروائي (زمن الخطاب)، إذ لا يستطيع الكاتب أن يقدّم أكثر من حدث في وقت واحد، إضافة إلى الاصطدام بالوحدات اللغوية التي لا تساعده على مراده، أو ظهور أكثر من شخصية في وقت واحد. ومن ثم، يلجأ القاص إلى التذبذب الزمني من خلال الرجوع إلى الماضي (الاسترجاع)؛ لكي يطلع القارئ على خلفيات الأحداث والشخصيات، أو استشراف المستقبل (الاستباق)؛ ومحاولة قراءته، والتنبؤ بما سيحدث فيه.

(١) الزمن والمكان في قصة العهد القديم، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج١٦، ع٦٥، ١٩٨٥، ص٣.

ولذا يحدث هذا الانقطاع الزمني، وينتقل القارئ من زمن إلى آخر؛ لتحقيق أهداف سردية ومتعة فنية من خلال تجميع هذه الخيوط في عقلية القارئ.(١)

والمتابع لمسار الأعمال القصصية العربية يلحظ بجلاء أن الاسترجاع قد نال حظًا وافرًا من اهتمام الكتاب، حيث يُعدُّ أداة فعّالة للكشف عن خلفيات الأحداث والشخصيات والأماكن، مما يسهم في إثراء السرد وتوضيح السياقات. في حين أن استشراف المستقبل جاء في معظم هذه الأعمال بشكل محدود، رغم أنه كان له أثر بالغ في بناء القصة القرآنية، سواء في ربط الأحداث أو في تأثيره على الشخصيات. وسوف نرى كيف قام هذا العنصر الزمني بدور محوري في تطور السرد القرآني، مما جعله أداة فاعلة لتوجيه الأحداث وتشكيل مصير الشخصيات.

والاستشراف هو إحدى التقنيات التي يستخدمها الكتاب "للقفز إلى فترة معينة من الزمن، ويتجاوز النقطة التي وصلها إليها الخطاب؛ لاستشراف مستقبل الأحداث، والتطلع إلى ما سيحصل من مستجدات الرواية."(٢)، فهو "أحد أشكال المفارقات الزمنية، الذي ينطلق صوب المستقبل انطلاقًا من لحظة الحاضر، أو استدعاء حدث أو أكثر سوف يقع بعد لحظة الحاضر."(٣)، ومن ثم، يعمل الاستشراف على "الإشارة إلى حوادث ستقع في مستقبل السرد، أو في الزمن اللاحق للسرد."(٤). أو يشير إلى "استباق

(١) ينظر بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحميداني، ط١، مركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م، ص٧٣. بتصرف.

(٢) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠م، ص ١٣٢.

(٣) قاموس السرديات، جيرالد برنس، ترجمة السيد إمام، ميرت للنشر والمعلومات، بالقاهرة، ٢٠٠٣، ص١٥٨.

(٤) الرواية العربية الرؤيا والبناء "مقاربات نقدية"، سمر روحي، ط. منشورات اتحاد الكتاب الربي، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٩٤.

الأحداث في السرد، بحيث يتعرف القارئ على وقائع الأحداث قبل أوان وقوعها الطبيعي في القصة."[١]

وقد يأتي هذا الاستشراف خارجيًا، يتجاوز زمن الحكاية، فيبدأ بعد الخاتمة، ويمتد ليكشف مآل بعض المواقف والأحداث المهمة، ويصل بعدد من خيوط السرد إلى نهايتها،[٢] وربما يأتي الاستشراف داخليًا، لا يتجاوز خاتمة الحكاية، ولا يخرج عن إطارها الزمني[٣]؛ فهو يأتي داخل الحكاية ليكشف للمتلقي عن بعض الأحداث التي تقع ضمن الحكاية، تمهيدًا لها، وتهيئة للقارئ. كما قد يأتي هذا الاستشراف تكميليًا، يسدُّ مسبقًا نقصًا سيحدث في السرد الأولي، فهو تعويض عن حذف لاحق[٤] يستطيع من خلاله المتلقي ملء الفجوات السردية.

ويهدف الاستشراف إلى جذب المتلقي للعمل الأدبي من خلال العمل على إحدى المداخل النفسية للإنسان، التي تحاول أن تقارن بين ما استشرفه الكاتب، وما جاء على أرض الواقع، فيكون الاستشراف خير دافع للمتلقي لمواصلة قراءة العمل من بدايته إلى نهايته. فهو يمثل "شكلاً من أشكال الانتظار أو التطلع"[٥]؛ وهذا ما يضفي على النصوص المصداقية الداخلية، ويجعل المتلقي أكثر انتباهاً للعبارات الاستشرافية، وأكثر دقة في تتبعها، ومن ثم يربط حاضر الحوادث بالسابق واللاحق منها."[٦]، فضلاً عن

(١) بنية النص من منظور النقد الأدبي حميد لحمداني، ص٧٤.

(٢) ينظر معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، ط١، دار النهار للنشر، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢م، ص١٧، وما بعدها.

(٣) ينظر السابق، ص١٨.

(٤) ينظر السابق، ص١٧

(٥) خطاب الحكاية بحث في المنهج، جيرار جنيت، ط٢، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٧٧.

(٦) ينظر الرواية العربية الرؤيا والبناء "مقاربات نقدية"، سمر روحي، ص ٩٤.

وظائفه المهمة في التمهيد للأحداث والشخصيات، "وتهيئة المتلقي للحوادث اللاحقة، ومزج المروي في الماضي بالمروي في الحاضر؛ بغية ربط حلقات السرد، وجعل الرواية مترابطة تُجسِّد التماسك الفني."(١)، ولعل من أهم الوظائف التي يقوم بها في النص العمل على تماسك النص الحكائي، وملء الفراغات التي تحدث في وقت لاحق بسبب أشكال الحذف المختلفة التي تتعاقب على السرد، (٢) ومن ثم يعمل على تماسك النص الداخلي من خلال ربط الماضي بالمستقبل في خط زمني متماسك.

وعند تأمل القصة القرآنية، نجد أن الاستشراف قد قام بدور بالغ الأثر في تشكيل أحداثها، سواء من خلال التمهيد للأحداث المستقبلية، أو التمهيد لمجريات القصة نفسها، أو حتى تقديم الشخصيات وملامح حياتها، بما في ذلك الإشارة إلى النقاط المضيئة في سيرهم، وكشف ما يكنُّه قلب كل شخصية وتجلية مشاعرها. إضافة إلى العديد من الوظائف الأخرى التي قام بها الاستشراف في النص القرآني، مما جعله أداة فاعلة في بناء السرد وتوجيهه. ومن هنا، أتوقف أمام هذه التقنية في القصة القرآنية من خلال ثلاثة مباحث متتالية، ساعيًا بما أستطيع من جهد إلى إبراز قيمة هذه التقنية وبيان دورها في النص القرآني، الذي يتمايز بخصوصية فنية فريدة، وأساليب متقنة تشكل أنموذجًا إعجازيًا لا مثيل له، تحدى به الله الأولين والآخرين.

(١) ينظر السابق، ص٩٤.

(٢) ينظر بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ص١٣٢.

المبحث الأول: مصادر الاستشراف في القصة القرآنية

تعد القصة القرآنية أنموذجًا متعدد الأبعاد، تجمع بين الإيمان والتربية والصياغة الفنية، مما يجعلها معجزة كاملة في جميع جوانبها الفنية من خلال الإحاطة الكاملة بجميع الأدوات التي تكفل لها تكاملاً معجزًا في جميع العناصر الفنية المختلفة من زمان، ومكان، وشخصيات، فضلاً عن كونها دليلاً قويًا على نبوة النبي محمدﷺ؛ لأنها تعد "مدخلاً طبيعيًا يدخل منه أصحاب الرسالات، والدعوات، والهداة، والقادة إلى الناس وإلى عقولهم وقلوبهم."[(١)]؛ لما اشتملت عليه من حقائق ومعارف لا ينهض بمثلها إلا نبي مرسل، بأسلوب لغوي محكم، وبناء فني أعجز العرب وغيرهم عن محاكاته.

ومن بين التقنيات الفنية التي استندت إليها القصة القرآنية، تبرز تقنية الاستشراف كأداة محورية تخدم النص السردي في أبعاد متعددة. فهي لا تقتصر على الإخبار عن المستقبل بأسلوب معجز يعكس مصدرها الإلهي، بل تقوم – أيضًا – بأدوار سردية بالغة الأهمية، تُسهم في تشكيل بناء الأحداث وتوجيه سيرها. ومن هنا، تتنوع مصادر الاستشراف في القصة القرآنية، بحيث لا تأتي في قالب سردي موحد على امتداد السورة، بل تتجلى في أشكال وأساليب متعددة، مما يضفي على السرد تنوعًا وثراءً، كما سنرى في تفصيل ذلك.

أولاً: الرؤى المنامية.

تنفرد الرؤيا في المنظور الإسلامي بخصوصية فريدة ومكانة سامقة، إذ تُعد جزءًا من أجزاء النبوة كما جاء عن النبي ﷺ[(٢)]؛ حيث كانت أولى

(١) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار المعرف، بيروت – لبنان، ص٩.

(٢) رواه البخاري برقم (٦٥٨٦)، ومسلم برقم (٢٢٦٣).

إشارات الوحي الذي بدأ به النبي ﷺ هي الرؤيا الصادقة، التي كانت تتجلى بوضوح لا لبس فيه، كفلق الصبح[١]، مما يدل على ارتباطها المباشر بالعالم الغيبي ودقتها في إيصال المعاني الإلهية. وقد بلغت الرؤيا من الأهمية أن رسول الله ﷺ كان يسأل أصحابه عنها، ويقوم بتأويلها لهم[٢]، معززًا بذلك دورها كنافذة تربط بين الغيب والواقع إلا أن رؤى الأنبياء تتميز بأنها وحيٌ منزلٌ يحمل في طياته توجيهًا وتشريعًا، وهو ما يجعلها مختلفة عن رؤى عامة البشر التي – رغم مكانتها كعاجل بشرى للمؤمن[٣]– لا تترتب عليها أحكام شرعية أو دلالات تشريعية، بل تظل في نطاق التبشير والإلهام الروحي.

ويتمايز مصطلح "الرؤيا" بالألف الممدودة عن "الرؤية" بالتاء المربوطة في السياقين اللغوي والدلالي تمايزًا جوهريًا. فـ"الرؤيا" مصدر للفعل "رأى" المتعدي إلى مفعولين، وقد خُصَّ بما يراه الإنسان في منامه. يُقال: "رأيت عنك رؤيا حسنة"، أي حلمت بها، وجمعها "رؤى"[٤]، مما يعكس ارتباطها بالعالم الغيبي وتجليات النفس الإنسانية أثناء النوم. في المقابل، تأتي "الرؤية" بالتاء المربوطة مصطلحًا يشير إلى الإدراك الحسي أو الفكري، وهي مصدر للفعل نفسه، لكنها تتعدى إلى مفعول واحد أو مفعولين في سياق رؤية الإنسان للأشياء الملموسة أو تأملاته الذهنية. يُقال: "رأى

(١) رواه أحمد في مسنده برقم (٨٤٠)، ورواه البخاري برقم (٣).
(٢) رواه أحمد في مسنده برقم (١١٨١٤).
(٣) رواه البخاري، برقم (٦٥٨٩) ، ومسلم برقم (٢٠٢).
(٤) ينظر لسان العرب، ابن منظور، مادة (رأى).

زيدًا عالمًا" أو "، ورأى رأيا ورؤية وراءة[١]"، مما يُظهر انحصارها في حدود الواقع الحسي أو الفكرة المجردة.

وقد ارتقى القرآن الكريم بمصطلح "الرؤيا" ليحمل دلالات متعلقة بما يراه الإنسان في منامه، فجاء في مواضع عدة؛ ليجسد هذا المعنى ضمن سياقات غيبية ذات مغزى عميق. يقول الله تعالى:﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾[٢]، مشيرًا إلى الرؤيا المنامية التي تحمل بُعدًا اختباريًا للإنسان. كذلك، جاء قوله:﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[٣] مما يعكس صدق الرؤيا كوسيلة إلهية لإبلاغ الحقائق المستقبلية. كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

إن الفرق بين "الرؤيا" و"الرؤية" يتجاوز الجانب اللغوي؛ ليعكس فرقًا جوهريًا في الوظيفة والدلالة. فقد اختُصَّت "الرؤيا" بالبعد الغيبي الذي يستكشف عوالم المستقبل عبر إشارات رمزية أو صريحة، بينما ظلت "الرؤية" أسيرة الإدراك الحسي أو الفكرة الذهنية. وهكذا، يتجلى في الخطاب القرآني تمايز المصطلحين، مع تخصيص "الرؤيا" بالدلالة المنامية التي تتسم بالعمق الروحي والمعنى الغيبي.

وتأتي كلمة "الحُلْم" مرادفًا ظاهريًا لكلمة "الرؤيا"، فكلاهما يشير إلى ما يراه الإنسان في منامه. إلا أن التفريق الدقيق بينهما في اللغة والسياق الدلالي يعكس تباينًا جوهريًا، حيث يُطلق مصطلح "الرؤيا" على ما يراه

(١) ينظر السابق، مادة (رأى).
(٢) سورة الإسراء، آية (٦٠)
(٣) سورة الفتح، آية رقم (٢٧).
(٤) سورة الصافات، آية رقم (١٠٥).

الإنسان من خير وحقائق صادقة تحمل إشارات غيبية أو معاني روحية، بينما يُستخدم "الحُلْم" للإشارة إلى ما يتسم بالعبثية والتخليط، وما يراه الإنسان من شر لا يحمل قيمة غيبية أو دلالات مؤثرة، وقد عكس القرآن الكريم هذا التباين بوضوح في استخدامه للمصطلحين، حيث جاء وصف ما رآه ملك مصر في منامه بكلمة "الأحلام" حين قال المعبرون عنه: ﴿**قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ**﴾(١)، وبهذا التعبير، نقل القرآن اعتقادهم بأن ما رآه الملك ليس سوى أخلاط غير مترابطة، وأحلامًا كاذبة لا تستحق عناء التأويل. ومن خلال هذا الاستخدام، يكشف النص القرآني عن قصور معبري مصر في إدراك البعد الغيبي للرؤى وتأويلها على النحو الذي فعله سيدنا يوسف عليه السلام، كما استخدم المشركون لفظ "الأحلام" عند محاولتهم التقليل من شأن الوحي والرسالة النبوية، إذ وصفوا ما ينزل على النبي محمد ﷺ بأنه مجرد "أضغاث أحلام"، وهي رؤى مختلطة لا قيمة لها، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾(٢) ومن هنا، استخدموا الكلمة في سياق تهكمي يقصدون به أن الوحي ليس إلا تخيلات شاعرية أو رؤى عشوائية لا تحمل الحقيقة أو الإعجاز.

هذا التمايز بين "الرؤيا" و"الحُلْم" في النص القرآني لا يقتصر على المعنى اللغوي، بل يمتد ليعكس رؤية فلسفية عميقة عن الإدراك الغيبي. فـ"الرؤيا" تمثل صلة بين العالم العلوي والواقع البشري، تحمل معاني الحق والإلهام، بينما "الحلم" يعبر عن حالة من التشويش البشري والاضطراب

(١) سورة يوسف، آية رقم (٤٤).
(٢) سورة الأنبياء، آية رقم (٥).

الذهني، ليضع القرآن حدًا فاصلاً بين الحقيقة الإلهية وأوهام البشر، وبين الوحي الذي يرتقي بالمؤمنين والتخيلات التي تضللهم.

وعند الغوص في بنية القصة القرآنية، يتجلى دور الرؤيا المنامية كأداة محورية في استشراف المستقبل وتوجيه مسار السرد. ففي قصة سيدنا يوسف عليه السلام، تتجاوز الرؤيا كونها حدثًا عابرًا، لتصبح محورًا رئيسًا يشكل العمود الفقري للقصة؛ إذ إنها ليست مجرد نافذة إلى المستقبل، بل أداة سردية تتشابك مع كل مرحلة من مراحل القصة، لتمنحها ترابطًا دراميًا محكمًا وبُعدًا رمزيًا عميقًا، وقد افتتحت القصة برؤيا رمزية رآها سيدنا يوسف في منامه، تحمل إيحاءات غيبية تعكس مصيره المستقبلي. يقول سيدنا يوسف: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (١). فهذه الرؤيا، برمزيتها العالية، تؤسس لبنية القصة، حيث تشير إلى المحطات الكبرى التي سيمر بها سيدنا يوسف، بدءًا من كيد إخوته، مرورًا بمحنته، ووصولًا إلى اصطفائه وتمكينه. غير أن اللافت في هذه الرؤيا أنها تأتي متجاوزة اللحظة الزمنية التي قيلت فيها، لتكون بمنزلة خريطة غيبية ترسم أفق السرد بأبعاده المتعددة.

وردّ سيدنا يعقوب عليه السلام على الرؤيا يكشف عن وعي متقدم بدلالاتها العميقة، حيث قال: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(٢)، وهذا التحذير ليس استجابة أبوية لحماية سيدنا يوسف فحسب، بل هو إدراك غريزي بأن الرؤيا لا تُقرأ بمعزل عن

(١) سورة يوسف، آية رقم (٤).

(٢) سورة يوسف، آية رقم (٥).

السياق البشري الذي تحيط به. فالرؤيا هنا ليست مجرد حلم، بل هي وحي يربط بين الغيب والمصير البشري، ويكشف عن مسار قدر محكم.

وفي إطار البناء السردي، لم تكتفِ الرؤيا بدور تمهيدي في القصة، بل كانت بمنزلة نقطة انطلاق تأسيسية للبنية الدائرية للسرد؛ حيث يقول سيدنا يعقوب لابنه يوسف فيما حكاه الله عنه في تفسيره لرؤياه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]. ففي الآية الكريمة، تتداخل الرؤيا مع التأويل لتشكّل نسيجًا سرديًا متكاملًا، حيث تُحيل دلالاتها إلى المستقبل، وتربط بين تاريخ النبوة ومآلاتها، وهكذا يمكن القول إن الرؤيا في القصة القرآنية لا تُعد مجرد عنصر من عناصر السرد، بل هي مركز ثقل يضفي على القصة بعدًا غيبيًا عميقًا يُشرك القارئ في قراءة متعددة المستويات للواقع والمصير، ويعكس البراعة القرآنية في المزج بين الدلالة الرمزية والبنية السردية المحكمة.

ومن خلال هذه الرؤيا الاستشرافية التي تمهد للأحداث المستقبلية بتكثيف مركز، يمكننا أن نلمس بداية واضحة لما سيحدث في القصة القرآنية، حيث يتم الكشف عن أبطالها وتحديد أبرز الأحداث التي ستؤثر في مجرى السرد؛ فتبدأ القصة بكيد إخوة يوسف وما يتبع ذلك من آثار عميقة على حياة سيدنا يوسف في مراحل عمره المختلفة، من الطفولة إلى الشباب ثم الشيخوخة، مع تسليط الضوء على اجتباء الله له، باصطفائه وتعليمه تأويل الأحاديث، مما مهد الطريق لوصوله إلى مكانة مرموقة في بلاط مصر، وهذه الأحداث جميعها تأتي لتكشف عن مكانة سيدنا يوسف

(١) سورة يوسف، آية رقم (٦).

المستقبلية، ما ينعكس في سجود إخوته له في النهاية، ليغلق بذلك دائرة الاستشراف، مما يضفي على السورة براعة افتتاحية من خلال الإشارة المبكرة للقضايا الأساسية التي سيتناولها الخطاب القرآني.

وقد جاء هذا الاستشراف في هذه القصة القرآنية مرتين بأسلوبين مختلفين، رغم اشتراكهما في المضمون، وهو ما يُطلق عليه في السرد القصصي "تكرار الحكاية"(١). ففي الاستشراف الأول، يأتي سيدنا يوسف عليه السلام ليحكي عن رؤياه التي تحمل رموزًا خاصة، وقد استطاع سيدنا يعقوب عليه السلام تأويلها. أما الاستشراف الثاني، فيأتي على لسان سيدنا يعقوب، حيث يوصي ابنه يوسف بعدم إخبار إخوته بهذه الرؤيا بسبب ما تحمله من دلالات على مستقبله المشرق. إضافة إلى ذلك، يحمل هذا التوجيه من سيدنا يعقوب إعدادًا نفسيًا لهما، حيث يهيئهما لما سيتعرضان له من محن وابتلاءات.

وما ينماز به هذا التأويل أنه جاء بصورة غير مباشرة؛ حيث لم يكشف سيدنا يعقوب عليه السلام عن كل تفاصيل الرؤيا، بل اكتفى بتوجيه ابنه يوسف بعدم إخبار إخوته، مشيرًا إلى مكانته المستقبلية دون أن يفصّل في أبعاد هذه المكانة. وقد أوجد هذا التلميح الغامض حالة من الترقب والتشويق لدى المتلقي، الذي يبقى في حالة تساؤل حول دلالة الكواكب الأحد عشر التي سجدت لسيدنا يوسف، ومعنى سجود الشمس والقمر، وسبب أمر ابنه يوسف بعدم إخبار إخوته. ومع توالي السرد، يواصل المتلقي البحث عن إجابات لهذه الأسئلة، مما يعزز عنصر التشويق ويزيد من جذب انتباه القارئ. فضلاً عن تنوع الأصوات السردية؛ حيث ينتقل السرد بين سيدنا

(١) معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ط١. دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠م، ص٣٢٤.

يوسف وسيدنا يعقوب، فيُروى بدايةً على لسان سيدنا يوسف، ثم يتحول سيدنا يعقوب عليه السلام إلى الراوي المؤول. وقد أضفى هذا التبادل بين الأدوار حيوية على المشهد، وجعل الزمن السردي يتزامن مع الزمن الروائي، مما جعل الاستشراف عنصرًا محوريًا في جذب القارئ وإثارة تشويقه.

وإذا كانت الرؤيا الأولى التي رآها سيدنا يوسف عليه السلام تمثل نقطة انطلاق رئيسة في السرد القرآني، حيث تشكل الأساس الذي يقوم عليه تطور الأحداث، فإن الرؤيا الثانية التي رآها السجينان أثناء وجودهما مع سيدنا يوسف عليه السلام في السجن جاءت لتقوم بدور محوري في حل العقدة السردية التي نشأت بعد اتهام سيدنا يوسف بالمراودة وسجنه ظلمًا رغم براءته التامة. وقد تجلى الاستشراف في هذه الرؤيا من خلال تأويل سيدنا يوسف لها، حيث قدم تفسيرًا دقيقًا ومفصلًا لرؤيا السجينين. يقول سبحانه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[1]، وقد تحقق هذا التأويل مطابقًا للواقع كما أشار سيدنا يوسف عليه السلام، مما يعكس سمة الإعجاز القرآني في دقة التعبير وصدق التنبؤ.

وفي تأويل هذه الرؤيا من سيدنا يوسف عليه السلام ما يكشف لنا عن مدى الرضا التام بقضاء الله، والتسليم المطلق لما يجري على العبد من أقدار. فلم يعش سيدنا يوسف حياته في السجن في كدر وحزن وعزلة، أو نقمة على هذا المجتمع الذي ظلمه وأودعه مع القتلة والسارقين والمجرمين رغم مكانته وعقله، بل انخرط في هذا المجتمع الجديد على الرغم من خطورته مقارنة

(١) سورة يوسف، آية رقم (٤١).

بالمجتمع الذي كان خارج السجن. فأفاض عليهم بعطفه، وشملهم بإحسانه حتى وثق فيه الجميع، وقال له هذان السجينان: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وتجسّد هذه الرؤيا الثانية تحولًا ملموسًا في مسار حياة سيدنا يوسف عليه السلام ، حيث انتقل من حياة القصور والترف إلى قسوة السجن، ليواجه معاناة جسدية ونفسية في بيئة مظلمة تختلف اختلافًا كليًا عن حياته السابقة. هذا الانتقال يعطي المكان أبعادًا ذات ظلال كآبة تؤثر على مسار السرد وحياة البطل الرئيس للقصة، وتضفي شكلًا مأساويًا ذا بُعد درامي غني، مما يشعل جذوة التشويق ويدفع القارئ إلى متابعة الأحداث بشغف، متسائلًا عن كيفية تحول هذه المعاناة إلى نقطة مضيئة في حياة سيدنا يوسف ومن حوله. فضلًا عن دورها في تسريع وتيرة الأحداث عبر اختصار العديد من التفاصيل الجانبية، مثل القبض على سيدنا يوسف واصطحابه إلى السجن، بما أتاح للقصة الانتقال بسرعة إلى لحظة محورية في السرد.

وفي السياق نفسه، لم تكن هذه الرؤيا مجرد إضافة لتطوير السرد الزمني والمكاني، بل كانت بمنزلة مفتاح لحل العقدة السردية الرئيسة. فبعدما ظن المتلقي أن القصة قد أوشكت على الأفول بوضع سيدنا يوسف في السجن، ظل أثر هذه الرؤيا التي رآها السجينان مستمرًا، لا سيما عندما عجز معبّرو مصر عن تأويل رؤيا الملك. حينها تذكّر الساقي أمر هذا المعبّر، الذي أخبره بما سيحدث له في المستقبل من خلال تلك الرؤيا التي رآها، وقد تحقق تأويلها كما قال. ومن ثم، يخبر الملك عن سيدنا يوسف، الذي يستطيع تأويل رؤياه. وبذلك يظهر دور هذه الرؤيا في تطوير الأحداث ونموها، ليفتح فصلًا جديدًا في تطور القصة.

إن هذه الرؤيا لم تكن مجرد نقطة انطلاق للأحداث فحسب، بل كانت محورية في تعقيد المواقف السردية في بداية القصة. غير أنها، في الوقت ذاته، قامت بدور حاسم في فك هذه العقدة وفتح آفاق جديدة للتواصل مع

العالم الخارجي. فقد كان التأويل الذي قدّمه سيدنا يوسف عليه السلام للرؤيا بمنزلة لحظة حاسمة، إذ كان الساقي، الذي تنبأ له يوسف بالبراءة، سببًا في التواصل مع الملك، بعدما طلب سيدنا يوسف منه أن يذكره عند الملك، كما أخبرنا الله تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(١).

لقد كان نسيان ساقي الملك أمرًا مقدرًا ليبقى سيدنا يوسف في السجن لفترة إضافية حتى تظهر براءته أمام الجميع في لحظة محورية. ومن ثم، فقد جاءت الرؤيا الملكية التي عجز المفسرون عن تفسيرها بمنزلة نقطة انطلاق لتحول مفصلي في السرد. هذه الرؤيا، التي وصفها الجميع بأنها "أضغاث أحلام"، جعلت الحاجة ملحة لاستخراج مفسر قادر على تأويلها بشكل صحيح، وهو ما كان من نصيب سيدنا يوسف عليه السلام. وبالتالي، انتقلت الأحداث إلى مستوى جديد، حيث لم يقتصر الأمر على تأويل الرؤيا فحسب، بل امتد إلى استشراف مستقبل مصر والشعب المصري برمته، حيث قدم يوسف رؤية واضحة لحلول الأزمة الاقتصادية الموشكة التي كانت ستؤدي إلى دمار البلاد لو لم يتم الاستعداد لها بشكل دقيق.

والتعبير القرآني في تأويل سيدنا يوسف للرؤيا الملكية يحمل بعدًا خاصًا، فقد جمع بين التأويل والمقترحات العملية التي تمس حياة المصريين. قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ

(١) سورة يوسف، آية رقم (٤٢).

يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾ [١] وتظهر الرؤيا، رغم غموضها الأوَّلِي، كيف أنها حملت في طياتها حلاً استراتيجيًا لما كان سيواجه مصر من كارثة. فقد بيّن سيدنا يوسف عليه السلام كيف يجب على المصريين أن يزرعوا خلال سبع سنوات، مع بذل أقصى جهد لتخزين المحاصيل، استعدادًا للسنوات السبع التي تليها من الجفاف والقحط. وعندما تنقضي هذه السنوات القاسية، يأتي "عام الغوث" الذي يحمل في طياته الفرج والنجاة للمصريين. وفي هذا التأويل، لم تكن الرؤيا مجرد تنبؤ بالمستقبل، بل كانت بمنزلة خطة شاملة تُنفذ في الواقع لتجنب كارثة اقتصادية كانت تهدد البلاد. وبالتالي، لا تقتصر قيمة هذه الرؤيا على ما تحمله من معرفة غيبية، بل تتجاوز ذلك لتكون خارطة طريق عملية، تعكس قدرة سيدنا يوسف عليه السلام على التأثير في مصير مصر، وتكشف عن صدق تأويله، الذي كان بمثابة شهادة على نبوته. لقد أسهم تأويله في إضاءة الطريق أمام المصريين، وكان حلاً للمأزق الذي كانوا سيواجهونه، فحقق بذلك برهانًا ساطعًا على صدق دعوته ونبوته.

إن هذا الترميز العميق الذي حملته رؤيا الملك كان سببًا رئيسًا في عجز معبّري مصر عن فك رموزها؛ إذ لم تستطع خبرتهم في تفسير الرؤى، ولا قواميسهم التي جمعوا فيها نوادر التفسيرات، أن تفكك هذه الرموز الغامضة. ففشلوا في تقديم تفسير مقنع، وانتهوا إلى وصف الرؤيا بأنها "أضغاث أحلام"، مما يعكس حدود فهمهم لما تنطوي عليه هذه الرؤيا. ومع ذلك، كان الملك ذا بصيرة نافذة؛ فلم ينخدع بتفسيرهم السطحي، بل أصر على البحث عن تفسير دقيق، ليُهيّئ الله الأسباب لخروج سيدنا يوسف عليه

(١) سورة يوسف، آية رقم (٤٦– ٤٩).

السلام من السجن، فيكون المفسر الوحيد القادر على تأويلها، مما يفتح بابًا جديدًا للأحداث ويغيّر مجرى التاريخ.

لقد فتحت هذه الرؤيا أفقًا جديدًا في حلقات السرد القرآني، مسهمةً في نقل الأحداث إلى مرحلة مفصلية تنطوي على تحول زمني ومكاني عميق. فعلى الصعيد المكاني، أتاحت هذه الرؤيا لسيدنا يوسف الانتقال إلى قلب مصر، ليصبح له فيها دور محوري. فقد أُعطيت له القدرة على التنقل بحرية بين أرجائها والتحكم في خزائنها، مستفيدًا من المكانة التي منحها له الملك بعد أن فسّر الرؤيا التي عجز معبّرو مصر عن تأويلها. ولم يكن هذا التحول مجرد تغيير مكاني، بل كان بمنزلة إضفاء شرعية على سلطته في إدارة شؤون البلاد. فمن خلال هذه السلطة، بدأ سيدنا يوسف عليه السلام في وضع خطة استراتيجية محكمة تهدف إلى تجاوز الأزمة الاقتصادية التي كانت تهدد مستقبل مصر، وهي أزمة كان من الممكن أن تؤدي إلى دمار شامل لو لم يتم الاستعداد لها بشكل دقيق.

إضافة إلى ذلك، كانت هذه الرؤيا تمهيدًا لإدخال أحداث جديدة في سلسلة التطور السردي، حيث توسعت دائرة التأثير لتشمل مستويات متعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر. فلم تكن هذه الرؤيا مجرد حدث عابر في السرد، بل كانت نقطة تحول محورية أسهمت في إثراء البناء السردي ودفعه للأمام، مما أضاف بُعدًا تشويقيًا ودراميًا جعل القارئ يتطلع إلى ما ستؤول إليه الأحداث في المستقبل. كما أتاحت هذه الرؤيا إدخال شخصيات جديدة ذات تأثير كبير على مجريات السرد، مثل الملك ودوائر حكمه، مما مهد الطريق أمام سيدنا يوسف للاندماج بشكل حيوي في المجتمع المصري. فقد أصبح المسؤول الأول عن خزائن البلاد، وتولى قيادة خطة استراتيجية محكمة لمواجهة القحط والجفاف الذي كان يهدد مصر.

وهذه التغيرات لم تقتصر على إدخال شخصيات جديدة، بل شملت أيضًا تهميش شخصيات أخرى كانت لها أدوار سابقة في السرد، كما في حالة إخوته وامرأة العزيز، وأعادت تأهيلها لتستعيد مكانتها في سياق الأحداث. وبذلك، شكَّلت هذه الرؤيا نقطة مفصلية في إدارة المشهد السردي، حيث أضفت على القصة تنوعًا في الشخصيات وتعددًا في أدوارها.

وعلى صعيد الزمان، أطرّت هذه الرؤيا مرحلة عمرية من حياة المصريين تُقدّر بخمسة عشر عامًا، مقسمة إلى سبع سنوات يزرع فيها المصريون أقواتهم بجد واجتهاد، ويخزنون ما يزيد عن حاجتهم لاستخدامه خلال سبع سنوات أخرى يحل فيها القحط والجفاف. ثم يأتي عام الغوث الذي يفرج عن المصريين ما هم فيه من شدة وضيق. وخلال هذه الأعوام، تمكن سيدنا يوسف من التفاعل مع هذا المجتمع بعمق، خاصة أن مصدر هذا التأويل مقطوع بصحته كونه وحيًا إلهيًا، مما جعل صدق تأويله دليلًا قاطعًا على صدقه وصدق دعوته، وبرهانًا ساطعًا على نبوته. وقد رأى المصريون من أخلاقه وبره وعطفه ما جعلهم يحبونه حبًا جمًا.

لقد شكّلت هذه الرؤيا، بالإضافة إلى التأويلات الثلاثة – التمهيدية والتفسيرية – قلب القصة، وحملت عناصر التشويق والصراع التي جمعت بين الماضي والمستقبل في بناء سردي متقن. إضافة إلي أنها ساعدت في تكامل حلقات السرد في إطار متماسك يعكس براعة التعبير القرآني، مما يجعل هذه القصة بحق "أحسن القصص" كما وصفها القرآن الكريم.

<u>ومن الرؤى التي شكلت نقطة محورية في بناء القصة القرآنية</u>

<u>الرؤيا التي وردت في قصة سيدنا إبراهيم</u> عليه السلام مع ابنه إسماعيل، إذ لم تكن مجرد رؤية غيبية تُنبئ بمستقبل محدد، بل كانت بمنزلة أداة نفسية ومعنوية تُهيئ الشخصيات لابتلاء عظيم، وتخلق تفاعلًا بين الغيب والواقع المادي. فقد حكى الله له قول سيدنا إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ

السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1]، مما يشير إلى أن الرؤيا كانت بمنزلة الوحي الذي يُعلن عن تحول قادم في مصير العلاقة بين الأب وابنه.

ومن أهم الأبعاد التي عملت الرؤيا على تهيئتها في هذه القصة البُعد النفسي للشخصيتين الرئيستين، حيث رُزق سيدنا إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل على كبر، بعدما وهن عظمه ضعفًا، واشتعل رأسه شيبًا، وبلغ من العمر عتيًا. لذا، فإن الأمر المباشر بذبح إسماعيل كان – والله أعلم – من أشق الأوامر التي تلقاها سيدنا إبراهيم عليه السلام في حياته. وجاءت الرؤيا تمهيدًا ومؤهّلة لنفس سيدنا إبراهيم عليه السلام، لتكون الوسيلة الأنجع – والله أعلم – في هذا المقام. كما أن إخبار سيدنا إبراهيم لابنه إسماعيل بهذه الرؤيا جاء لتحقيق الغاية ذاتها، مع علمه الأكيد بتنفيذ الأمر الإلهي سواء رضي إسماعيل أم لا. غير أنه أراد استكشاف أعماق نفس ولده، ليعرف ما في قلبه، ويدرك مدى وعيه بمتطلبات النبوة ومقام الأبوة، وليهيئ نفسه لقبول الأمر الإلهي عبر هذه الرؤيا.

وعلى المستوى اللغوي، فإنَّ استخدام إبراهيم عليه السلام لصيغة "يَا بُنَيَّ" بدلاً من "إسماعيل" يعكس عمق العلاقة بين الأب وابنه، ويضفي على الموقف بعدًا إنسانيًا عاطفيًا؛ إذ يأتي النداء بهذه الصيغة ليعكس المحبة والشفقة العميقة التي تربط الأب بابنه، مما يبرز المفارقة بين مشاعر الأب وحجم التضحية المطلوبة منه، وبين المحبة الإلهية وواجب الإيمان. وقد استُخدم التصغير في "بني" ليعكس هذا التودد والعطف على الابن في لحظة الأزمة، مما يُزيد من عمق التضحية ويسلط الضوء على المحبة التي تُذبح جنبًا إلى جنب مع بنوة إسماعيل.

(١) سورة الصافات، آية رقم (١٠٢).

وفي قوله: (**إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**) ما يعزز من صورة الرؤيا في ذهن سيدنا إسماعيل، ويجعلها كأنها حدث يتكرر أمام ناظريه من خلال زرع الصورة في ذهن إسماعيل، ليشعر وكأن الحلم قد تحول إلى واقع ملموس أمامه، مما يسد عليه كل أبواب التردد، ويغلق كل الفضاءات التي قد تمنحه فرصة للمقاومة، ويزيد من الإلحاح على النفس لتستجيب للامتحان الإلهي.

وسورة الصافات من السورة التي عنيت بإثبات وحدانية الله عز وجل، وعرض شبه المشركين وتفنيدها، والاستشهاد بمشاهد من حياة الأنبياء؛ لبيان أن تسليم لأوامر الله هو السبيل للنجاة في الدنيا والأخرة[١]، ومن ثم كانت قصة سيدنا إبراهيم إحدى المشاهد التي جاءت بها هذه السورة الكريمة، غير أنها جاءت بمشهد يمثل قمة التسليم لأمر الله على الرغم من امتلاء حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام بالتضحيات والتسليم التام لأمر، ولذا فقد حققت الرؤيا أهدافًا متعددة من التهيئة، وتقديم الشخصية، وبيان مقدار التسليم، ومناسبة السورة ومضمونها، كونها إحدى الوسائل التي استخدمها القرآن في عرض القصة القرآنية.

<u>ومن بين الرؤى التي استخدمها القرآن الكريم في عرض المشاهد القصصية</u>، تبرز رؤيا النبي ﷺ في الحديبية، التي تُخبر بدخول المسجد الحرام هو وأصحابه محلقين ومقصرين. وقد جاء هذا التأكيد من الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ

(١) ينظر التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، ٨١/٢٢.

مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[1] ، وهي الرؤيا التي أثارت تساؤلات الصحابة، حتى قال بعضهم في الحديبية عندما نحروا إبلهم: "أين رؤيا محمد ﷺ؟[2].

لقد استشرفت هذه الرؤيا أحداثًا عظيمة ستقع بعد سنتين من وقوعها، إذ كان صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، في حين تحقق فتح مكة في السنة الثامنة. وكانت الرؤيا بمنزلة الأمل النفسي للصحابة، تخفف من وطأة الألم والخيبة التي شعروا بها بعد أن توانوا في تنفيذ أمر النبي ﷺ بعدم نحر الإبل. فهذه الرؤيا لم تقتصر على إخبارهم بالمستقبل فقط، بل عملت على عقد مقارنة بين الواقع المرير الذي فرضته الظروف، وبين الأمل المنشود في المستقبل القريب.

كما حملت هذه الرؤيا بشرى عظيمة للنبي ﷺ ولأصحابه، حيث بشرتهم بدخول المسجد الحرام لأداء المناسك في أمن تام، في إشارة واضحة إلى فتح مكة الذي سيقع لاحقًا. ومع ذلك، كانت هناك إشارة غير مباشرة إلى عدم تمكنهم من دخول مكة في تلك السنة، لأن الأمن الكامل لم يتحقق بعد. ولا شك أن مشهد صلح الحديبية في سورة الفتح يحمل بُعدًا دلاليًا عميقًا، حيث يعكس ارتباطًا وثيقًا بين مشهد الصلح ومشهد فتح مكة، اللذين يشكلان معًا محطة فاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية.

إن هذه الرؤى المنامية التي حملت استشرافًا دقيقًا للأحداث المستقبلية لم تقتصر على الإخبار بما سيحدث فقط، بل أصبحت أيضًا أداة تعبيرية عن الشخصيات، انعكست من خلالها مشاعرهم وهمومهم بأسلوب قرآني

(١) سورة الفتح، آية رقم (٢٧).
(٢) ينظر تفسير الطبري، الطبري، ٢٥٧/٢٢.

بليغ وفريد. كما لم تكتفِ هذه الرؤى بجذب المتلقي فحسب، بل وجهته لاستكشاف مسارات القصة المتعددة، مما خلق تفاعلًا داخليًا عميقًا وجذبه لاكتشاف أبعادها المتنوعة.

ثانيًا: شخصيات العمل القصصي.

تُعدُّ الشخصية القصصية إحدى ركائز الرئيسة في العمل الأدبي؛ لما تقوم به من دور في إنتاج الأحداث ونموها وتطورها، وإيجاد الصراعات، وتأزم المواقف، والتأثير في المكان، والتأثر به، ونقل الوحدات الزمنية في صورة نعقلها ونشعر بوجودها، حتى صار العمل القصصي مرهون بجودها؛ إذ "ليس هناك قصة واحدة في العالم من غير شخصيات."(١)، وغدت جودة العمل القصصي متوقفة على قدرة المؤلف على رسم هذه الشخصية داخليًا وخارجيًا، والتعبير عنها في جلّ مواقفها النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وتوظيفها توظيفًا صحيحًا داخل العمل القصصي، ومن ثم فقد شاعت هذه المقولة عند النقاد والأدباء "الرواية شخصية."(٢)؛ دلالة على أهمية داخل العمل الأدبي.

ومن الأدوار البارزة التي تقوم بها الشخصيات في القصة القرآنية دور التنبؤ بما سيحدث في المستقبل، سواء كان هذا التنبؤ مستندًا إلى الوحي، كما في الرؤى الإلهية التي توجه الشخصيات وتحدد مسارات الأحداث، أو مستندًا إلى توقعات مبنية على الخبرات السابقة والمعطيات الواقعية. تُستخدم هذه التنبؤات لتكوين صورة شاملة عن الأحداث المقبلة، مما يسهم

(١) سيميائية الشخصية الروائية، شريبيط أحمد شريبيط، ط. جامعة باجي مختار بالجزائر، ص١٩٤.

(٢) المعجم المفصل في الأدب، محمد التوتجي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٣، ج٢، ص٤٥٧.

في دفع الحبكة وتطويرها. وهذا يعكس حكمة السرد القرآني وقدرته على دمج التنبؤ كجزء من البناء الدرامي، حيث تتفاعل الشخصيات مع الأحداث المستقبلية بشكل يعكس عمقًا نفسيًا ودلاليًا متجذرًا في الواقع الذي تعيشه.

ومن هذه الاستشرافات القرآنية التي جاءت في القصة القرآنية ما جاء على لسان الملائكة في قصة خلق سيدنا آدم عليه السلام في قولهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]

وليس هذا الاستشراف من الملائكة الكرام المسبوق بهمزة الاستفهام مبنيًا على الاعتراض على أمر الله، أو التبرم من خلق غيرهم، أو على وجه الحسد منهم لبني آدم، بل جاء على وجه الاستفهام عن بيان الحكمة في خلق الإنس، ولذا فهو "سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يسفد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك... ولا يصدر منا شيء من ذلك، فهلا وقع الاقتصار علينا."[2] ، ومن ثم فإن هذا الاستشراف – لما سيقع في المستقبل من الملائكة – هو مبني – والله أعلم – على ما علمته الملائكة من أن أصل خلقة بني آدم مجبولة على الفساد في الأرض والقتل، أو أنهم فهموا هذا المعنى من لفظة (الخليفة)؛ إذا سيقع بينهم الخلاف والتحاسد والقتل على هذه الخلافة والملك، أو استندوا لما حدث قبل عندما خلق الله الجن قبل الإنس فأفسدوا في الأرض لما نزلوا إليها وأحرقوا الحرث والنسل.[3]

---

(١) سورة البقرة ، آية رقم (٣٠).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير، ابن كثير، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ، ١٢٤/١.

(٣) ينظر تفسير القرطبي، القرطبي، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤، ٢٧٤/١. بتصرف

وإذا كان هذا الاستشراف مبنيًا على الظن والتخمين أو مستندًا لوقائع سابقة، أو فهم فهموه فتوقعوا هذه الأمور؛ فإن الله ﷻ قد أخبرهم بعلمه فقال: (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) "أي: إني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعالمون، والخاشعون والمحبون له سبحانه."[١]، وبالنظر إلى الواقع فقد تحقق هذان الاستشرافان: استشراف الملائكة المبين على الاستعلام عن الحكمة والمستند إلى وقائع سابقة أو غير ذلك كما ذكر، واستشراف الله المقطوع بوقوعه، المتحقق وقوعه؛ لأنه صادر من العليم الخبير سبحانه.

ومن هذه الاستشرافات التي جاءت في القصة القرآنية ما جاء على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام من استشراف للمستقبل عندما طلب إخوة يوسف أن يأخذوه ليلعب معهم فقالوا: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)﴾[٢]

وقد اختلف في قراءة (يرتع)، فقرأها بعض القراء بكسر العين (يرتعِ) والأصل (يرتعي) من الرعي، والمعني أرسله معنا من أجل أن يرعي غنمه وينظر ويعقل، فيعرف ما يعرف الرجال، في حين قرأها آخرون (يرتعْ) بسكون العين، ويكون المعني: أرسله معنا من أجل أن نلعب ونلهو وننعم، وننشط في الصحراء، ونحن حافظوه من أن يناله شيء يكرهه أو يؤذيه[٣]،

(١) تفسير ابن كثير، ابن كثير، ١/١٢٥.
(٢) سورة يوسف ، آية رقم (١١،١٢،١٣).
(٣) ينظر تفسير الطبري، ١٥/٥٧٢.

وعلى كلا القراءتين؛ فإن إخوة يوسف قد احتالوا على أبيهم، وقالوا خلاف ما أضمروه في قلوبهم، بيد أن أباهم تنبأ بما قد يفعلونه في المستقبل.

وتُظهر كلمات سيدنا يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ عمق تعلقه بابنه يوسف، وهو تعلق تجاوز المألوف. يكشف حزنه عن خوف أبوي يمتزج بحب عميق، إلى درجة أن ساعات قليلة من الفراق تُثقل قلبه بالألم، مما يعكس ارتباطًا عاطفيًا يكاد يستهلك وجدانه بالكامل. وهذا يدفعه إلى التوقع بما قد يحدث في المستقبل لسيدنا يوسف من ضرر قد يقع عليه. ولعل هذا التعلق الشديد – والله أعلم – كان سببًا في ابتلاء سيدنا يعقوب بفراق يوسف، تربيةً وتأديبًا من الله لعبده؛ إذ لا يصح أن يمتلئ قلب العبد بغير ربه.

ويُشير بعض المفسرين إلى رؤيا رآها سيدنا يعقوب عليه السلام، حيث احتشدت عشرة ذئاب حول يوسف كأنها تريد افتراسه، لكن أحدها دفع عنها الأذى، ثم توارى يوسف في الأرض لثلاثة أيام. وقد فُسرت هذه الرؤيا بأن الذئاب تمثل إخوة يوسف العشرة الذين تآمروا عليه، بينما الذي دافع عنه هو أخوه الأكبر يهوذا[1]. وهذا التفسير الذي يحاول أن يربط بين الذئاب والإخوة ربما يكون بعيدًا؛ إذ لو كان سيدنا يعقوب يخشى على يوسف من إخوته لما أرسله معهم أصلًا، والأقرب – في رأيي – أن سيدنا يعقوب عليه السلام لم يُسقط مخاوفه على إخوته، بل استند إلى واقع البيئة المحيطة به، حيث الصحراء تمثل موطنًا طبيعيًا للذئاب والمخاطر. فهذا التوقع لم يكن سوى قراءة نبوية دقيقة لما قد يحدث في المستقبل، لا من باب الحذر من القريب، بل من باب التفاعل مع معطيات البيئة والحذر الطبيعي الذي يفرضه السياق.

(١) ينظر تفسير القرطبي، ٩/١٤٠.

ويتجلى في حديث سيدنا يعقوب عليه السلام تمييز دقيق بين الحزن والخوف؛ فالحزن هو ألم على مكروه وقع في الماضي، مثل غياب يوسف عن نظر أبيه حتى للحظات، أما الخوف فهو ألم متوقع نتيجة مكروه محتمل في المستقبل(١). ومن خلال هذه التفرقة، أراد سيدنا يعقوب أن ينقل لأبنائه عمق معاناته، ليحثهم على مزيد من الحرص على يوسف، مستخدمًا هذا التصور كوسيلة للفت انتباههم إلى مسؤوليتهم عن حماية أخيهم الصغير. لكن رغم هذا التوضيح الإنساني العاطفي، طغت مشاعر الحسد على قلوب إخوة يوسف، فحجبت نار الغيرة عنهم إدراك حجم الألم الذي سيتسببون به لأبيهم. لقد فقدوا البصيرة التي كان يمكن أن تدفعهم للرحمة بأخيهم الصغير ورعاية مشاعر أبيهم. وهكذا، تغلبت الأنانية والغيرة على صوت العقل والعاطفة، فكانت النتيجة فعلًا جائرًا لا يليق بحق الأخوّة أو البرّ بالوالد.

ومن بين هذه الاستشرافات ما جاء على لسان آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون في قولها التي تكشف من خلاله، عن استشراف دقيق للمستقبل حين قالت: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(٢)، ففي لحظة حاسمة، تدخلت بعاطفة الأمومة الفطرية وبُعد النظر لإنقاذ حياة سيدنا موسى، متحدية السياق الدموي الذي فرضه فرعون على بني إسرائيل؛ حيث رأت في هذا الطفل براءة تستحق الحياة، واستبصرت إمكانية أن يكون له دور عظيم في المستقبل، يتجاوز الطرف الآني. ومع أن فرعون رفض أن يكون موسى قرة عين له، مُعلِّقًا رفضه بنبرة تحدٍّ، إلا أن كلماته حملت مفارقة مأساوية؛

(١) ينظر تفسير القرطبي ، ٢٥٢/١٣.
(٢) سورة يوسف ، آية رقم (١١،١٢،١٣).

إذ لو قبل مقترح السيدة آسيا بصدق، لكان سيدنا موسى بالفعل قرة عين له، ولربما تغير مسار الأحداث. وهنا يتجلى حديث النبي ﷺ عن هذه الواقعة، مشيرًا إلى أن كلمة "نعم" من فرعون كانت ستقلب الموازين الروحية والسياسية في القصة في قوله ﷺ "لو قال فرعون نعم لآمن بموسى، ولكان قرة عين له."[1]، لكنها لم تُقال، ليبقى فرعون حبيس طغيانه، وليتحقق قدر سيدنا موسى أن يكون نبيًا مخلصًا لبني إسرائيل، حيث تُبرز هذه القصة تداخل الأقدار مع قرارات البشر، وكيف يمكن أن تكون كلمة واحدة فارقة بين الهداية والطغيان، وبين النجاة والهلاك.

إن الاستشراف الذي طرحته السيدة آسيا بنت مزاحم لم يكن مجرد إشارة عابرة في سياق القصة، بل كان له دور حاسم في تطور الأحداث وصعودها إلى مستويات جديدة، حيث فتح أمام السرد أبوابًا جديدة وأمدَّه بخيوط سردية معقدة تسهم في إثراء العملية السردية، حيث لم يقتصر على تقديم رؤية لمستقبل سيدنا موسى، بل نقل القصة إلى فضاءات جديدة، بظروف وخلفيات جديدة، كأنما يخلق عالمًا متجددًا يعكس التوترات والصراعات الكامنة في حياة سيدنا موسى داخل القصر الفرعوني. كما أنه هذه الرؤية المستقبلية تثير التناقضات التي تمزج بين الواقع والطموح، حيث تجد المتلقي في موقف من الاستنكار والدهشة، إذ كيف يمكن للطفل الذي كان يُعتَبر تهديدًا لنظام فرعون أن يُربَّى في بيت عدوه؟ هذه المفارقة تضفي على القصة بُعدًا إنسانيًا ودراميًا، تفتح آفاقًا جديدة للتفكير في مستقبل موسى، وتلهم المتلقي بمفاجآت قد تكون مخفية في طيات السرد.

لقد كان للاستشرافات في القصة القرآنية دور محوري في تعميق الحكاية وتحويلها إلى معركة من التوقعات والمفاجآت، حيث أسهمت هذه

(١) ينظر تفسير القرطبي، ١٣/٢٥٤.

اللحظات الاستشرافية في التمهيد للأحداث المستقبلية، وفي بناء التشويق والترقب لم تقتصر على تحضير المتلقي لما سيحدث فحسب، بل أضافت أبعادًا جديدة للعلاقات بين الشخصيات، وكشفت عن طبائعها، بل وفتحت أفقًا لظهور شخصيات جديدة تُثري عالم القصة، مما يجعل السرد أكثر تعقيدًا وحيوية.

ثالثًا: الخطاب الإلهي المباشر.

يلعب السارد والروي دورًا محوريًا في العملية السردية، حيث يُعتبر الوسيط الأساسي الذي يتولى مهمة نقل الأحداث والإخبار عن الشخصيات. فهو الذي "يقدم المادة القصصية"(١) بطريقة تُسهم في بناء الفضاء الروائي، مقدماً للمتلقي تفاصيل الأحداث والمواقف والأوصاف بعيدة عن حضور المبدع بشكل مباشر، الأمر الذي يعد أساسًا لتحقيق الواقعية في السرد، حيث يوحي المتن السردي بأن الأحداث التي ترويها تتسم بالصدق والتوثيق الحي.

وقد يتعدد شكل هذه الرواية، بحيث يكون السارد قد يكون عليمًا بكل مجريات الأحداث، يتحكم في مفاصل السرد ويتقن إدارة خيوط القصة بتفاصيلها كافة، فيحمل المتلقي إلى أبعاد متعددة من المعنى والدلالة. أو قد يظهر السارد مختفيًا وراء إحدى الشخصيات، إلا أنه يظل في هذه الحالة الخيط الذي يربط بين الكاتب والمتلقي، فيظل غير مرئي ولكن وجوده مؤثر وموجه للأحداث. في كلتا الحالتين، يبقى السارد قوة مؤثرة في تعزيز واقعية الأحداث، بما يعزز من صدقية النص ويعطيه عمقًا يتيح للقارئ تجربة تفاعلية مع الواقع الروائي الذي يعيشه.

(١) بناء الرواية دراسة مقارنة في "ثلاثية نجيب محفوظ"، د. سيزا قاسم، ص١٨٤.

والقرآن الكريم كلام الله المنزل على قلب سيدنا محمد ﷺ يمثل مصدرًا مقدسًا يوجه الأمة ويُرشدها عبر أساليب متعددة في تقديم الأحداث ونقل الوقائع، التي لم تقتصر على النقل الحرفي فقط، بل تسهم في تشكيل الوعي والتفاعل مع الرسالة الإلهية بشكل يوازي عمق المعنى ومقاصد التشريع، ويعرف هذا بتقنية "أسلوب تقديم المادة القصصية"(١)، حيث تتعدد طرق نقل الأحداث والوقائع داخل النص القرآني، فقد تُنقل الأحداث عبر شخصية قرآنية، نراها تعبر عن نفسها بكلام مباشر أو من خلال حديث الآخرين عنها، أو من خلال حوارات متبادلة تُسهم في بناء السياق الدرامي للأحداث. كما يكمن أن يكون الأسلوب المباشر هو الأسلوب الذي يخبرنا على إخبار الله تعالى من خلاله بالأحداث، الشخصيات، والأماكن، وتفاصيل الزمن والمجريات، مما يمنح السرد قوة وحسمًا لا يقبل الجدل. وفي كل هذه الأشكال، يتلقى المخاطب الإخبار الإلهي بتسليم تام، ليس فقط لأنه مصدر إلهي فحسب، بل لأن الرواية ذاتها تتسم باليقين المطلق والصدق الذي لا يحتمل التشكيك. فالتسليم هنا ليس مجرد قبول سطحي، بل هو التزام داخلي يربط المتلقي بمعرفة لا يعتريها شك، إذ يُدرك أن الإخبار الإلهي يتجاوز حدود الزمن والمكان، ليؤثر في تصوراته للوجود ويشمل مجريات الأحداث بصفتها جزءًا من حكمة إلهية لا مجال للمساومة عليها.

وتستمد الاستشرافات في القرآن الكريم قوتها من العلم الإلهي المطلق، حيث يُعلم الله سبحانه وتعالى ما كان وما سيكون، مما يجعل هذه الاستشرافات محكمة وقطعية في وقوعها، حيث تأتي هذه الاستشرافات في صورة أخبار تُبعث اليقين في النفوس، سواء كانت متعلقة بأحداث قريبة فتُعد اسشرافات داخلية مرتبطة مباشرة بسياق الحكاية، أو كانت لأحداث

(١) السابق، الصفحة نفسها.

بعيدة، تقع بعد الحكاية، مما يجعلها اسشرافات خارجية تُضيف عمقًا للرواية.

ومن أبرز هذه الاستشرافات ما أوحاه الله إلى أم موسى عليه السلام، حيث قال تعالى:﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[١]. هذا الوحي الإلهي، الذي وصفه المفسرون بوحي الإلهام[٢]، لم يكن مجرد تعليم عملي لحظي، بل كان استشرافًا عميقًا لأحداث قادمة ستؤثر بشكل جوهري في حياة سيدنا موسى عليه السلام وأمه. فإلى جانب إعادة موسى إلى أمه بعد أن ألقته في اليم، حمل هذا الوحي تأكيدًا على أن سيدنا موسى سيكون من المرسلين الذين يوحى إليهم، ما يضيف بُعدًا وجوديًا في مسار القصة، ويجعل الحكاية تتسع لتشمل معاني ورسالات أعمق من مجرد حدث فردي؛ حيث الاستشراف يعكس قدرة الله سبحانه على ربط الأحداث في نسقٍ محكم، يفتح المجال لتصوّر المستقبل بشكل متسلسل ومترابط، ويوجه القارئ لفهم أوسع وأشمل لمدى تأثير هذه الأحداث على تطور القصة وتوجيه مسارها نحو غايات إلهية بعيدة الأثر.

وقد لامست أم سيدنا موسى عليها السلام إحدى الاستشرافات الإلهية بعد ساعات قليلة من إلقائه في اليم، حيث حرّم الله عليه أن يلتقم ثديًا غير ثدي أمه أو يطعم لبنًا سوى لبنها، كما جاء في قوله تعالى﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾[٣]، فهذا الاستشراف كان بمنزلة تمهيد لحدث جديد في عملية السرد، وهو انتقال أم موسى إلى قصر فرعون لإرضاع ابنها، ليحقق بذلك

(١) سورة القصص، آية رقم (٧).
(٢) ينظر تفسير الطبري، ٥١٩/١٩.
(٣) سورة القصص، آية رقم (١٢).

وعد الله لها. وقد عالج هذا الاستشراف مخاوف أم موسى، ولامس قلبها، فبدّد خوفها وحزنها، ما جعلها تتجرأ على إلقاء ابنها في اليم رغم ما يحيط بهذا الفعل من خطر. فحتى لو نجا سيدنا موسى من الغرق أو الموت جوعًا في اليم، فإن فرعون وجنوده كانوا متربصين به، مما جعل هذا الاستشراف يتخذ طابعًا تطمينيًا عميقًا. وكأن حياة سيدنا موسى بأسرها كانت موجهة نحو وظيفة عظيمة تنتظره، فدور سيدنا موسى في المستقبل كان يتطلب أن تمر هذه المخاطر لكي يتحقق.

إن هذا الاستشراف الإلهي لم يكن مجرد تمهيد للأحداث، بل كان دافعًا لتطوير السرد وتصاعده، كما ساعد في إدخال شخصية جديدة في العملية السردية بطريقة فنية مبدعة تستلزمها تطورات الأحداث. فقد أمرت أم موسى ابنتها أن تتبع أثره لتعرف مصيره، مما أتاح لهذه الشخصية الصغيرة أن تدخل في مجريات الأحداث وتساهم في تسلسل الأحداث بطريقة حاسمة. وفي اللحظة التي تقول فيها﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[1]، نرى استشرافًا داخليًا جديدًا يفتح الباب أمام حدث جديد. وهكذا، تتابع الأحداث في تسلسل متماسك، تُقاد بخيوط الاستشرافات التي تغذي السرد، وتسد الثغرات بين محطاته، مما يساهم في تطوير القصة وتحقيق تماسكها.

ومن أبرز الاستشرافات القرآنية التي تحمل دلالات عميقة وتستمر آثارها في الواقع، نجد ما جاء في قصة أصحاب الكهف، حيث قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ

(١) سورة القصص، آية رقم (١٢).

إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[١]، حيث يقص الله علينا اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف، وقد جاءت هذه الآية الكريمة جوابًا لسؤال اقتضته خيوط السرد مفاده: إذا أجبت اليهود أو النصارى أو غيرهم عن تلك الأسئلة التي سألوك إياها فأسألهم عن عدد أصحاب الكهف فستجد اختلافًا واضحًا في إجابتهم[٢]، ومن ثم اتضحت قيمة هذا الاستشراف القرآني الذي يمتلك العلم الكامل بحقيقة كل شيء.

وبرهانًا على التمكن من العلم بالأشياء ظاهرها وباطنها، أولها وآخرها، والإحاطة بها إحاطة تامة، ومعرفة جميع تفاصليها، يخبرنا الله من خلال هذا الاستشراف إخبارًا تفصيليًا بمذاهب القوم في عدد أصحاب الكهف، من خلال عرض هذه الأقوال والتعليق على بعضها، والسكوت عن بعض، فقد وصف القرآن الرأيين الأول والثاني – القائلين بأن أصحاب الكهف ثلاثة رابعة كلبهم، أو خمسة وسادسهم كلبهم – بأنهما من باب الظن والتخمين وليسا صادرين عن علم ويقين، ثم ذكر القول الثالث وسكت عنه، مما دفع بعض العلماء للقول بأن عدد أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم؛ استنادًا إلى هذا السكوت.[٣]

ومن هذه الاستشرافات التي أخبر الله ﷻ بوقوعها في المستقبل ما جاء في قصة بني إسرائيل في قوله تعالى ذكره: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا

(١) سورة الكهف، آية رقم (٢٢).

(٢) ينظر التفسير الوسيط، الطنطاوي، محمد سيد طنطاوي، ط١، دار نهضة مصر، ٨،١٩٩٨/٤٩٥.

(٣) ينظر تفسير ابن كثير، ٥/١٤١.

لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦)﴾[١]، حيث أعلم الله بني إسرائيل بوقوع الفساد منهم، والبغي ومخالفة التوراة، والارتفاع على الناس بغير حق مرتين، فيعاقبهم الله بعد الفساد الأول بإرسال عباد له أصحاب بأس شديد؛ عقابًا على ما اقترفوه منن آثام.[٢]

وقد وقع هذا الفساد من بني إسرائيل فتعاظموا، وتكبروا، واستحلوا المحارم، وقتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، فسلط الله عليهم بختنصر فقتل منهم أربعين ألفًا ممن يقرأون التوراة، وأخذ البقية إلى أرضه، فعاشوا في القيد والذل حتى تزوج هذا الملك امرأة من بني إسرائيل، فطلبت منه أن يرد بين إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل، وبعد مدة قامت فيهم النبوة، ورجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه، ومن ثم يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾[٣]

وعلى الرغم من اختلاف المفسرين في شأن هؤلاء الذين أرسلهم الله على بني إسرائيل، وأن هذه الأحداث وقعت أم لم تقع إلى الآن، فإن هذا الاستشراف قد أخبرنا بأحداث مقطوع بحدوثها في المستقبل، حتى ذكر الله شيئًا من تفاصيل هذه الأحداث، وإن كانت على سبيل الإشارات، فهؤلاء عباد يتصفون بالقوة والبأس، يقتلون بني إسرائيل فيسمونهم سوء العذاب، حتي يصل الأمر إلى الدخول إلى بيوتهم باحثين عنهم، طالبين من فرَّ منهم، مما يوحي بمقدار الخوف والجبن الذي ألقي في قلوب بني إسرائيل، ثم أعاد الله عليهم دولتهم وقوتهم لما تابوا ورجعوا إلى الله .

(١) سورة الإسراء، آية رقم (٤،٥،٦).

(٢) ينظر التفسير الكبير، لأبي بكر الرازي، ط٣. دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٠هـ، ٢٩٩/٢٠.

(٣) سورة الإسراء، آية رقم (٦).

وسياق الآيات تشير – والله أعلم – إلى وقوع هذه الأحداث لا سيما من خلال هذا الاستشراف الأخير الذي جاء في نهاية هذه القصة في قوله ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾[1]. إن هذه الاستشرافات التي أخبر الله بها تأتي مقطوعًا بحدوثها، وتعطي القرآن الكريم خصوصية فريدة من خلال الإخبار عما سيحدث في المستقبل على سبيل اليقين والقطع بخلاف غيره من نصوص بشرية؛ حيث تبنى هذه الاستشرافات على الظن والتخمين والتوقع، فضلاً عن إنها خيالية لا تباشر واقعًا حقيقيًا بل هي من صنع المؤلف.

(١) سورة الإسراء، آية رقم (٧).

المبحث الثاني: بواعث الاستشراف وأهدافه في القصة القرآنية.

يُعد الاستشراف من التقنيات السردية الأساسية التي تُسهم في تشكيل البنية الزمنية للأعمال الأدبية، حيث يعمل على تمهيد الطريق للأحداث المستقبلية ويخلق نوعًا من التوتر الزمني الذي يتطلب من القارئ مشاركة نشطة في بناء المعنى. ومن خلال هذه الاستشرافات، يُكسر رتابة الزمن السردي، ما يتيح للمتلقي إعادة ترتيب الأحداث والوقائع في ذهنه بطريقة تتناغم مع التسلسل الزمني المقترح، فيصبح النص أكثر تفاعلًا وديناميكية. وقدرة هذا الاستشراف على تقديم لمحات عن المستقبل – سواء القريب أو البعيد – لا تقتصر على التنبؤ بما سيحدث فحسب، بل تعزز أيضًا من مستوى التشويق، مما يجعل القارئ في حالة ترقب مستمر للمفاجآت التي قد تطرأ. هذه الآلية، التي تُثير فضول المتلقي وتحفز ذهنه على البحث في المسارات المستقبلية الممكنة، تسهم بشكل فاعل في دفع الأحداث نحو تطورات غير متوقعة وتفتح فضاءات سردية جديدة، إذ يتعامل القارئ مع النص باعتباره جزءًا من تجربة زمنية غير مكتملة، فيصبح هو من يعيد بناء المعنى ويغذي السرد بتوقعاته الخاصة.

والاستشراف القرآني يتميز بخصائص فريدة تُضفي عليه طابعًا خاصًا يميزه عن غيره من أساليب السرد في الأدب، إذ لا يقتصر على الإخبار بالأحداث المستقبلية فحسب، بل يضطلع بدور عميق في بناء النص القرآني على مستوى متعدد الأبعاد. فهو لا يكتفي بجذب انتباه المتلقي لإدخاله في عالم القصة الداخلية، أو في إضافة تنويعات أسلوبية ترفع من مستوى السرد، بل يتجاوز ذلك ليحمل أهدافًا نبيلة وغايات سامية. هذه الأهداف لا تقتصر على تزويد النص بمعانٍ سطحية، بل تخرج القصة القرآنية في صورة متكاملة تجمع بين البُعد الفني والروحي، بأسلوب حكائي معجز يعجز البشر عن محاكاته، وحبكة قصصية تحمل في طياتها براعة عالية في

ترتيب الأحداث وربطها. كما أن الاستشراف القرآني يمتاز بقدرته على تجميع خيوط معجزة تُنسَج بعناية لتصل إلى ذروتها في نهاية قاصِمة، موصلة الرسالة الإلهية بأقصى درجات الإتقان. ولذلك، جاء الاستشراف في القرآن ليحقق مجموعة من البواعث السامية التي تتجاوز مجرد تنبؤات بما سيحدث، بل يُسهم في توجيه الأمة نحو الفهم العميق لرسالة الله، ويُدعم بالحقائق الكبرى التي تثبت صدق الوحي وتُثري أبعاد الحياة الإنسانية. وقد جاءت هذه الأهداف والبواعث للاستشراف في القصة القرآنية كالتالي:

١- <u>التمهيد للقصة القرآنية.</u>

تمثل افتتاحية الأعمال أدبية نقطة مهمة في بناء أي عمل أدبي يكتب له الخلود؛ حيث يعد عنوانًا جذابًا، وعتبة مهمة في إعطاء العمل الأدبي "أهمية خاصة في فهم آليات تكوينه، وانفتاحه، كما تشكل دورًا توجيهيًا يقود الدلالة من الكثافة والغموض إلى حقول توسع المعنى"(١)، ولذا فقد اهتمت الأعمال الأدبية الحديثة – على اختلاف توجهاتها وتنوع مصادرها – بهذه البدايات اهتمامًا كبيرًا؛ لأنها تعد الكلمات الأولى التي تقع عليها عين المتلقي؛ ولذا يجب أن تتسم بالوضوح في اللفظ والمعنى، والأسلوب الجذاب كي تدفع المتلقي إلى داخل النص؛ فهي بمنزلة "واجهته الشفافة التي تدفع القارئ للاقتراب أكثر من نصه"(٢)

وبالنظر إلى القصة القرآنية نجد أنها قد استثمرت الاستشراف والتنبؤ بأحداث ستقع في المستقبل في بدايتها؛ حيث يمثل هذا الاستشراف شكلاً

(١) وظيفة البداية في الرواية العربية، شعيب حليفي، مجلة الكرمل، عدد٦١، سنة١٩٩٩م، ص٨٥.

(٢) البداية في النص الروائي، صدوق نور الدين، ط. دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ١٩٩٤، ص١٧.

من أشكال التنوع لبدايات القصة القرآنية، فضلاً عن أنه خير مهاد لها من خلال التنويه على أهم الأحداث الوارد، والشخصيات المهمة داخل النص الداخلي بصورة مجملة؛ لتغري المتلقي بالولوج إلى فضاء القصة الداخلي، متتبعًا حلقات السرد المتنوعة من خلال استنقار ذائقته الأدبية في توقع الأحداث، وقد وقفنا على بداية سورة يوسف التي استثمرت الاستشراف في بدايتها، وكيف استطاع أن يجمل أهم الأحداث الواردة، ويشير إلى أهم الشخصيات داخل أحداث القصة بصورة رمزية مفسرة تفسيرًا إشاريًا من سيدنا يعقوب عليه السلام، بحيث تتعاضد تلك الرؤيا – التي شكلت مظهرًا من مظاهر التجديد في إيراد الاستشرافات القرآنية – مع تفسير سيدنا يعقوب؛ ليعطيان بداية في غاية البراعة لهذه السورة التي وصفت بأنها أحسن القصص.

ومن هذه الاستشرافات التي مهدت لأحداث القصة القرآنية ما جاء في قصة أصحاب الكهف في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[1]، فقد جاء هذا الاستشراف ممهدًا لأحداث هذا القصة، لا سيما وأنه قد جاء في معرض بيان إثبات نبوة النبي محمد ﷺ بعد أن سأله اليهود على لسان المشركين ثلاث أسئلة يتضح من خلالها إن كان نبيًا حقًا أم أنه من المدعين[2]، فناسب هذا الاستشراف مبدأ التحدي الذي سيقت السورة من أجله، وبيان أن قصة أهل الكهف وغيرهم ليست أمرًا معجزًا لله سبحانه؛ لأنه علم من أمرهم وأحوالهم ما لم يعلمه غيره.

والاستفهام في هذه البداية استفهام "إنكاري يحمل معنى النفي والنهي أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم، غريبة على آيات

(١) سورة الكهف، آية رقم (٩).

(٢) ينظر التفسير الكبير، لأبي بكر الرازي، ٤٢٨/٢١.

الله، بديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل الله تعالي من الآيات العجيبة الغريبة ما هو أعجب منها ما هو كثير من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها."(١)

وعلى عكس الرواية الحديثة، حيث يمكن أن يؤدي الاستشراف، خاصة إذا جاء في بداية القصة، إلى إضعاف الفنيات السردية من خلال الإيحاء بوجود راوي عليم(٢)؛ إذ إنه يتقاطع مع سحر المفاجأة والتطورات السردية، فإن الاستشراف في القصة القرآنية يُعدّ قمة في البلاغة والإبداع الفني. ففي القرآن، يتخذ الاستشراف شكلًا مختلفًا تمامًا، فهو لا يُقدّم الأحداث بشكل مكشوف بل يُقدّمها في صيغة غامضة مُثيرة للتساؤل، مما يشجع المتلقي على البحث والتفاعل مع النص بشكل عميق. إن الاستشراف القرآني لا يكتفي بتقديم إشارات مختصرة، بل يثير الفضول ويحفّز المتلقي على تتبع دلالات هذه الإشارات وفهم مراميها، مما يعمّق من تأثيرها التشويقي. ففي قصة أصحاب الكهف، على سبيل المثال، يُثير الاستشراف تساؤلًا حول حقيقة أصحاب الكهف والرقيم، ولماذا كانت قصتهم ليست أمرًا عجيبًا لله تعالى. هذا الأسلوب يفتح المجال للمتلقي للغوص في معاني النص واستكشاف التفاصيل التي تكشف عن العظمة الإلهية وقدرته، ويُبقي على جو من التشويق والانتظار دون أن يفقد القصة قدرتها على إثارة الدهشة والتأمل.

ومن هذه الاستشرافات التي مهدت للقصة القرآنية وأشارت إلى أحداث مستقبلية ستقع في داخلها ما جاء في قصة بني إسرائيل عندما طلبوا من

(١) تفسير السعدي، عبد الرحمن السعدي، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، دار الرسالة، ٢٠٠٠م، ص٤٧١.

(٢) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ١٣٢.

نبيهم أن يرسل لهم ملكًا يقاتلون تحت راية ويستردون به ما فقدوه، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(١). فالمتأمل في هذا الاستشراف يجد أنه قد مهَّد للأحداث التي ستقع في حلقات السرد المتتابعة: من نكوص بني إسرائيل على أعقابهم بعدما استجاب لهم نبيهم، فاختار لهم ملكًا يقاتلون تحت رايته، فأخلفوا الله ما وعدوه، وظهر ضعف إيمانهم بالله، وعدم مطابقة كلامهم لما في قلوبهم، ولذا كانت النتيجة أن تولوا إلا قليلاً منهم وهم معرضون، تولوا عن عما اختاره الله لهم، وتولوا في أرض المعركة ولم تثبت إلا هذه الفئة القليلة التي استثناها الله، وهذه الفئة التي أشار إليه هذا الاستشراف القرآني التي قاتلت مع طالوت عدوها هي الفئة نفسها التي استجابت لأمر طالوت فلم يشربوا من النهر وصبروا حتى قتلوا جالوت.

ولنا أن نتأمل هذه المفارقة الكاشفة بين كلام بني إسرائيل الذين أظهروا خلاف ما أضمروا في نفوسهم، وبين أفعالهم على أرض الواقع بعد ذلك. فقد طالبوا من نبيهم (ملكًا) يقاتلون معه، هكذا بصيغة التنكير الموحية بالرضا التام لما يُختار لهم. غير أنهم لما عرفوا أن طالوت هو الملك الذي اختاره الله لهم، اعترضوا عليه وقالوا: نحن أحق بالملك منه، متعللين بأسباب مادية واهية تكشف عن ضعف إيمانهم وسوء ظنهم بالله واعتراضهم على أنبيائهم، حيث لم ينقادوا لكلام نبيهم إلا مع وجود أدلة مادية تدل على صحة كلامه. ومع ذلك نكصوا على أعقابهم وتولوا، إلا قليلاً منهم.

(١) سورة البقرة، آية رقم (٢٤٦).

وتأتي أهمية الاستشراف في هذه الآية في دمج حلقتين سرديتين متضادتين في تلاحم تام لا يمكن الفصل بينهما. فمن خلاله استطعنا أن نتعرف على أسباب طلب بني إسرائيل من نبيهم إرسال ملك لهم، الأمر الذي يحيل إلى أحداث ماضية وقعت في الماضي، تعرض فيها بنو إسرائيل للهزيمة والإخراج من ديارهم. كما اطلعنا من خلاله على اسشرافات لأحداث ستقع في المستقبل، وكلا الأمرين (الماضي – المستقبل) جاءا في ترابط تام، وتداخل متين يعكسان أثر الأحداث الماضية في الأحداث التالية، مما يعطي الخطاب القصصي القرآني خصوصية تفرّد بها عن غيره.

ومن هذه الاستشرافات التي جاءت تمهيدًا لأحداث القصة ما جاء في قصة ولادة السيدة مريم؛ حيث افتتح الله ﷻ هذه القصة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) ﴾[1]، فقد مهد الله لهذه القصة من خلال إيراد اسم (آل عمران) بين أسماء الأنبياء، الأمر الذي سيدفع المتلقي لتتبع مسارات الأحداث كي يتعرف على أسباب هذا الاصطفاء الذي اصطفاه الله لآل عمران وكيفيته. فيلجأ إلى النص الداخلي متتبعًا ترجمة هذه العائلة الكريمة التي انحدرت منها السيدة مريم، ليكون ميلادها آية، وحياتها مثالاً للعفة والطهارة والنقاء، وابنها رسولاً من أولي العزم.

وإذا كان الله قد اصطفى آدم بأن خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء، وأسكنه جنته، واصطفى نوحًا فجعله أول رسول الله إلى أهل الأرض، واصطفى إبراهيم فجعله أبًا للأنبياء، وجعله من ذريته أفضل البشر محمد ﷺ؛ فإن الله قد اصطفى هذه العائلة المباركة

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٣٣،٣٤).

بأن جعل فيهم الأنبياء والأولياء والأتقياء. ولعل هذا ما توحيه لفظة (آل)، إشارة إلى هذه الأسرة المباركة المكونة من أم مريم التقية النقية التي نذرت مولدها ليكون خادمًا لبيت المقدس، ومريم الصديقة العابدة التي أحصنت فرجها وجعلها الله وابنها آية للعالمين، وابنها المبارك الذي اصطفاه الله رسولًا من أولي العزم، وأخيها التقي الذي أشير إليه في سورة مريم (يَا أُخْتَ هَارُونَ)، وأختها زوجة زكريا، لأن عيسى ويحيى ابنا خالة. ومن ثم؛ فقد حمل هذا الاسم (آل عمران) إشارات كثيرة يدخل بها المتلقي إلى فضاء القصة القرآنية بخلفيات معرفية عن هذه العائلة المباركة، التي أشارت إلى مريم، وأمها، وزكريا، ومولد عيسى عليهم السلام.

لقد قامت تقنية الاستشراف في بداية القصة القرآنية بدور بالغ الأهمية في التمهيد لأحداثها الرئيسية، من خلال إحداث إجمال مشوق وإشارة هادفة إلى ما سيحدث لاحقًا. إذ لم يكن مجرد مقدمة سردية، بل كان بمنزلة مفاتيح لولوج القارئ إلى الفضاء الداخلي للقصة. فقد ارتبطت العناصر السردية بشكل عميق بالنص القرآني نفسه، مما جعلها تفتح أمام القارئ آفاقًا جديدة للتفسير والتأمل. إن هذا الأسلوب قدّم بيانًا معجزًا في طبيعته، جعله بمنزلة إشارات ورموز تتناص مع النص الداخلي، توجيهًا فكريًا ونقديًا في الوقت نفسه، مما يسهم في خلق فضاء من التشويق والتحفيز على استكشاف الأحداث القادمة. من خلال هذه التقنية، أصبح الاستشراف ليس فقط أداة لتمهيد القصة، بل أيضًا وسيلة لبناء جسر بين الحكاية والقراء، يشدهم للاستمرار في تعقب الأحداث في عمقها وتفاصيلها.

٢- <u>التمهيد لوقوع الأحداث اللاحقة.</u>

يُعد الحدث من الركائز الأساسية التي يرتكز عليها العمل السردي، فهو المحور الذي تدور حوله جميع تطورات القصة وتفاعلات الشخصيات. فمن خلاله تنبثق المواقف وتتطور الشخصيات، فتتجلى صفاتها الداخلية

والخارجية في سياق الأحداث التي تعيشها. لذلك، يُعد ترتيب الأحداث أحد الأبعاد الفنية المهمة التي يتعين على الكاتب العناية بها بعناية فائقة. سواء أكان ترتيب الأحداث تصاعديًا، حيث يتدرج الحدث في تصاعد من البساطة إلى التعقيد، أو استرجاعيًّا، حيث يتم العودة إلى أحداث ماضية لفهم السياق بشكل أعمق، أو حتى متشظيًا حيث تتناثر الأحداث وتتناول تفاصيل متعددة في فترات زمنية مختلفة، يجب أن يتلاءم هذا الترتيب مع الزمان والمكان والشخصيات في القصة. هذه العلاقة الديناميكية بين الحدث وخصائص الشخصيات هي التي تمنح العمل السردي قوته في التأثير والإقناع، وتجعل تفاعلاته أكثر مصداقية وحيوية.

ومن أهم العناصر التي يجب توافرها في الحدث القصصي هو عنصر التشويق، وفائدة هذا العنصر تكمن في إثارة المتلقي، وشده من بداية العمل القصصي إلى نهايته، وبه تسري روح نابضة بالحياة والعاطفة(١)، ومن ثم جاء الاستشراف من أهم الأدوات التي استخدمتها القصة القرآنية؛ تمهيدًا لهذه الأحداث، وتهيئة المتلقي إلى لاستقبال أحداث جديدة في المتتالية السردية؛ إذ الغرض من هذه الاستشرافات "تهيئة القارئ لتلقي ما سيجري من تغييرات وأحداث مفاجئة"(٢)، ومن هذا النوع ما جاء في قصة سيدنا موسى عليه السلام عندما طلب من الخضر أن يتبعه؛ ليتعلم ما عنده من علم خصه الله به، فكان جواب سيدنا الخضر عليه يحمل سمات استشرافية

(١) القصة والرواية، د. عزيزة مريدن، ص٣٥

(٢) غائب طعمه فرحان روائيا "دراسة فنية"، فاطمة عيسى جاسم، رسالة دكتوراة، كلية الآداب جامعة الموصل، ص١٣٤. نقلاً عن "البنية الزمنية في القصة القرآنية (الاسترجاع والاستباق)" للدكتور بشار إبراهيم نايف، الصادرة عن دار الكتب العلمية ببيروت عام ٢٠١١م، ص٨٨.

لما قد يحدث في المستقبل، كما ذكره الله ﷻ حكاية عنه فقال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[1]

وهذا الاستشراف السابق يخلق مساحة واسعة للتأويلات المتنوعة، سواء في ذهن سيدنا موسى عليه السلام، الذي كان المتلقي الأول لهذا الخطاب الإلهي، أو في ذهن كل من يتلقى القصة بعده؛ حيث يستفز عقل المخاطب ويثير تساؤلاته حول الأحداث المستقبلية التي سيكون من الصعب على موسى أن يصبر لتفسيرها أو فهمها بشكل كامل. ومن هنا، يساهم هذا الاستشراف في تشكيل نمط درامي مثير داخل الحركة السردية، لأنه يخلق جواً من التشويق والتوتر، مما يدفع القارئ أو المستمع إلى متابعة القصة بشغف؛ لمعرفة كيف ستتطور هذه الأحداث غير المتوقعة التي تخرج عن المألوف.

والتعبير القرآني عن هذه الأحداث المستقبلية يوحي بخروجها عن المألوف والتصورات العقلية التي كانت سائدة في ذلك الوقت. فالتأكيد على عدم صبر سيدنا موسى عليه السلام، والذي يظهر من خلال أدوات التوكيد مثل (إنك – لن – تستطيع – وإسمية الجملة)، يشير إلى أن الأحداث التي ستقع ستكون غير متوافقة مع القواعد الدينية والعقلية المتعارف عليها، سواء ما كان في تعاليم التوراة التي يعرفها موسى عليه السلام أو ما كان سائداً من مفاهيم وأحكام عقلية. ومن هنا، يظهر التذكير المستمر من الخضر لسيدنا موسى بما قاله له في بداية الرحلة: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[2]. هذا التذكير ليس فقط لتوضيح الوضع الحالي، بل لتحفيز موسى

(١) سورة الكهف، آية رقم (٦٧).
(٢) سورة الكهف، آية رقم (٧٢).

على تقبل ما سيحدث من أفعال غير مألوفة، والتأكيد على أن هناك حكمة وراء كل فعل سيكون صعبًا على الفهم والتفسير في البداية.

إن الأحداث التي أشار الاستشراف إلى طبيعتها، مثل: قتل الغلام، وخرق السفينة، وبناء الجدار في القرية التي منعت قراها للضيوف، تمثل تحديًا صارخًا لآفاق التوقع المعتادة، وذلك من خلال إشارات الخضر المستمرة إلى عدم صبر سيدنا موسى عليها. هذه الأحداث تتماشى مع فكرة أن الأفعال التي سيقوم بها الخضر ستخالف تعاليم التوراة وقواعد العقل السائدة، مما يجعلها تبدو غريبة وغير مفهومة في البداية. وبذلك، تتجلى صورة التباين العميق بين العلم الذي يملكه سيدنا موسى عليه السلام وبين العلم الذي اختصه الله به الخضر. فبينما كان موسى عليه السلام يحمل علمًا منصوصًا عليه في التوراة، والذي ينطلق من مفاهيم وأحكام عقلية واضحة، كان الخضر يمتلك علمًا آخر، غيبيًا ومرتبطًا بالحكمة الإلهية، لا يمكن تفسيره أو إدراكه إلا بتوجيه من الله. لذا كانت هذه الأحداث بمنزلة اختبار لمدى صبر موسى وقدرته على قبول الأمور التي تتجاوز حدود معرفته الدينية والعقلية، وتكشف عن الفارق بين معرفته ومعرفة الخضر.

وقد مثلت هذه الأحداث التي أشار إليها الاستشراف نوعًا من العتاب لسيدنا موسى، لأنه لم يُرجع الأمر إلى الله عندما سئل عن أعلم أهل الأرض، فأجاب قائلاً: "أنا"[(١)]، ومن ثم أراد الله أن يربيه بالتجربة الواقعية والمثال الحي، وأن يرشده إلى ما ينبغي أن يكون عليه. فكم في الزوايا من خبايا، وكم في الرجال من بقايا! ومن ثم، فإرجاع الأمر لله أولى من أن ينسبه الإنسان إلى نفسه. كما تكشف هذه الأحداث عن تواضع سيدنا موسى

(١) صحيح البخاري حديث رقم (٤٧٢٥).

وأدبه، حيث سارع لأخذ العلم – رغم مكانته وفضله – من سيدنا الخضر عليه السلام.

إن إيراد هذا المشهد من قصة سيدنا موسى عليه السلام في القرآن يتناسب تمامًا مع أهداف السورة والسبب الذي أنزلت من أجله. فحين سُئل النبي ﷺ عن عدد من المسائل، أجاب قائلاً: "أجيبك غداً"(١)، ولم يستثنِ في جوابه. فتأخر الوحي حتى شق ذلك الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم، مما كان له تأثير تربوي وتأديبي عميق. أراد الله سبحانه وتعالى من ذلك أن يعلمه رجوع الأمور إلى الله، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يُقدم على شيء إلا بتوجيه من الله سبحانه وتعالى. ولذا، جاء إيراد هذا المشهد من قصة موسى عليه السلام في هذا السياق القرآني تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم، وتوجيهًا له بأن كل شيء في يد الله، وأن تأخير الوحي كان لحكمة إلهية تربوية تعزز تواضعه وتجعله يراجع نفسه في طريقة تعامله مع الأحداث. فمن خلال هذه القصة، يتعلم النبي صلى الله عليه وسلم وأمته أن الرجوع إلى الله والتأني في التفاعل مع المواقف هو من أسمى درجات الحكمة وأفضل وسائل التربية.

ومن هذه الاستشرافات التي مهدت لأحداث ستقع في المستقبل ما جاء في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع شعيب – عليهما السلام – عندما عرض عليه ابنته، ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٢)، حيث مهد هذا الاستشراف لأحداث مستقبلة ستقع في المستقبل.

(١) ينظر تفسير ابن كثير، ١٣٥/٥.
(٢) سورة القصص، آية رقم (٦٧).

وتكمن أهمية الاستشراف في تلخيصه عشرة أعوام من حياة سيدنا موسى عليه السلام قضاها أجيرًا عند سيدنا شعيب، دون التطرق إلى تفاصيل تلك السنوات بكل ما فيها من أحداث. فقد اقتصرت الإشارة القرآنية على هذا الاستشراف كتمهيد للأحداث المستقبلية، وكأن هذين الحدثين هما الأبرز والأهم بين جميع ما حدث خلال تلك السنوات العشر. ولم يتعرض القرآن الكريم لأي تفاصيل إضافية حول هذه الفترة سوى ما تم تضمينه في الاستشراف.

ويعد هذان الحدثان – سواء كان التزامه بالعمل عند شعيب أو زواجه – بمنزلة تمهيد وتحضير لسيدنا موسى عليه السلام لتحمل مسؤوليات أكبر في المستقبل. فقد مثل العمل الذي قام به في رعي الغنم، إلى جانب زواجه، تحملًا لمسؤولية أسرة، وكان ذلك بداية لتأهيله لتحمل أعباء الدعوة والرسالة لاحقًا. كما أن العمل في بيئة غريبة عنه كان بمنزلة تدريب له على مواجهة التحديات والصعوبات في مسار الدعوة، وهو ما سيتطلبه من صبر ومثابرة عندما يتصدى لقيادة أمة.

ومن هذه الاستشرافات التي تنبأ عن أحداث في المستقبل ما جاء في قصة طالوت مع قومه؛ حيث أخبرنا الله تعالى فقال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ (١)

لقد مهَّد الاستشراف القرآني لحدثين مهمين في قصة طالوت وبني إسرائيل، حيث كانت كل منهما خطوة حاسمة في بناء السرد القرآني. الأول كان استشرافًا يشير إلى اختيار الله لطالوت ملكًا على بني إسرائيل، بالرغم من اعتراضهم عليه بسبب عدم توفر المال لديه، حيث رأوا أنهم أحق بالملك منه. وكشف هذا الاستشراف عن حكمة الله المطلقة في اختيار القائد المناسب، وأوضح أن الله يختار من يشاء لحكمه بناءً على مؤهلات القيادة الحقيقية، مثل قوة الجسم وزيادة العلم. كما بيّن أن استحقاق الملك يعطيه الله مع من يشاء. ولتأكيد هذا الاختيار، جاء الاستشراف ليعطي لبني إسرائيل دليلاً ملموسًا على أحقية طالوت في الملك، عبر نزول التابوت الذي حملته الملائكة. وكان هذا التابوت يحتوي على سكينة وبركة من الله، وآثار من سيدنا موسى عليه السلام، ما كان يشكل آية من الله لبني إسرائيل تؤكد صحة اختيار طالوت.

والاستشراف الثاني التحم مع الأول ليكمل الصورة ويكشف عن اختبار إيمان بني إسرائيل وانقيادهم لأوامر الله. فطالوت، بعد أن أقرّوا بأحقية ملكه، قرر اختبارهم من خلال اختبار ميداني يتعلق بنهر، حيث أخبرهم أن من يشرب من النهر فليس من المؤمنين، ومن يطيع أمر الله بعدم الشرب هو من الصادقين. غير أن معظمهم شرب من النهر، ما أظهر ضعف إيمانهم، ولم يبق سوى فئة قليلة صادقة في إيمانها وطاعتها لله.

وهذه الاستشرافات لم تقتصر على تمهيد الأحداث فحسب، بل عملت أيضًا على تطويرها وتنميتها. الأول بيّن أحقية طالوت بالملك وأكد صفاته

(١) سورة البقرة، آية رقم (٢٤٨،٢٤٩).

القيادية، بينما الثاني أظهر اختبارًا إلهيًا حاسمًا لبني إسرائيل يميز الطائع من غيره، وهو ما أضاف بعدًا دراميًا للحدث. وبالتالي، من خلال الاستشرافين، تهيأت الساحة للأحداث التالية من القصة، التي استمرت في التتابع التصاعدي حيث تميزت بالاختبارات والعواقب التي تترتب عليها.

إن الاستشراف في القصة القرآنية لم يكن مجرد أداة تهيئة للأحداث فقط، بل كان عنصرًا فعالًا في جذب انتباه المتلقي، وتحفيزه لتتبع الأحداث التالية، ليكتشف من خلالها المعاني العميقة والدروس العظيمة التي يمكن استخلاصها من هذه القصص. وقد تحققت من خلاله الوظيفة التمهيدية والتشويقية التي تجعل القارئ متحمسًا لتلقي ما سيحدث في المستقبل، متسائلًا عن فحوى هذه الأحداث، كما ساهم في إبراز الحكمة الإلهية في تدبير الأمور.

٣- <u>التمهيد لإدخال شخصيات جديدة في مجريات الأحداث.</u>

تعد الشخصية القصصية من الركائز الأساسية التي يقوم عليها أي عمل أدبي، حيث لا يمكن تصور وجود رواية أو قصة بدون شخصية محورية تتحرك داخل النص وتُسهم في تشكيل تطور الأحداث؛ لأنها ليست مجرد كائن يتفاعل في إطار السرد، بل هي المحرك الفعلي الذي يُغذي الصراع الدرامي في النص؛ فضلاً عن تداخلها وتفاعلها مع الأحداث والمكان والزمان، وكشفها عن الطبائع والدوافع النفسية والاجتماعية والثقافية، لتضفي عمقًا واقعيًا على النص. غير أن أهمية الشخصية في العمل الأدبي لا تقتصر فقط على تفاعلها مع الأحداث، بل إنها تُعد انعكاسًا لما يعايشه الفرد من أبعاد نفسية واجتماعية وثقافية. فعندما يتم بناء الشخصية بشكل دقيق ومدروس، تصبح بمنزلة مرآة لواقع الإنسان في مختلف سياقات حياته. هذا البناء لا يكون مجرد وصف خارجي أو سطحي، بل يشمل فهمًا عميقًا لطبائع الشخصية وتوجهاتها الفكرية والعاطفية، بما يتماشى مع السياق العام

للعمل الأدبي. إن غياب العناية في رسم الشخصية أو بناءها بشكل سطحي يؤدي إلى فقدان العمل الأدبي لمصداقيته وواقعيته، وبالتالي يتقوقع النص في حدود القصص التقليدية التي لا تتجاوز المواقف السطحية أو الظرفية. ولهذا، "لا يتأتى بطبيعة الحال من غير العناية وبصورة مدققة وسليمة في رسم كل شخصية وتبيين أبعادها وجزئياتها"(١)، لأن غياب هذه العناية يجعل الشخصيات تُحاكَ وفق نماذج نمطية مبتذلة، مما يقلل من قدرتها على حمل الرسالة التي يسعى العمل الأدبي لتوصيلها.

ومن المهام الأساسية التي يقوم بها الاستشراف في القصة القرآنية إدخال شخصيات جديدة ضمن سياق الأحداث، وهو ما يسهم بشكل كبير في تطور هذه الشخصيات وبنائها بشكل متصاعد. فالشخصيات في القصة القرآنية لا تكون محض وجود عارض، بل هي جزء أساسي من بناء السرد، وتلعب دورًا محوريًا في تطور الحبكة ومرور الأحداث. كما في قصة أصحاب الجنتين، إذ يقول جل ذكره: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (٢)، حيث نجد أن الاستشراف لا يُنبه فقط إلى الأحداث التي ستطرأ، بل أيضًا إلى الشخصيات التي ستدخل هذا السياق وتكون محورية في استكمال الرسالة القرآنية.

ومن الخصائص البارزة في القصة القرآنية أن التأثير فيها يتم على مستويات متعددة، ويعتمد على تنوع عناصر السرد مثل الشخصية والحدث والمكان. ففي بعض الأحيان، يكون التأثير بالحدث نفسه، حيث تبرز الحادثة وتصبح هي محور القصة، فيختفي ما عداها من تفاصيل مثل

(١) ينظر الشخصية في العمل الروائي، محمد نصرالدين، ط٤، دار الفيصل الثقافية، الرياض،١٩٨٠، ص٢٠.

(٢) سورة الكهف، آية رقم (٣٢).

الأسماء أو صور الشخصيات. [١]، وهذه الطريقة في السرد تهدف إلى التركيز على جوهر الرسالة التي يريد القرآن إيصالها من خلال الحدث، بعيدًا عن التفاصيل التي قد تشتت الانتباه.

ففي البداية، يُقدّم القرآن شخصية الرجلين اللذين امتلكا جنتين، أحدهما كان غنيًا في المال والزرع، بينما كان الآخر فقيرًا، مما يمهّد لصراع طفيف بين مواقف الشخصيتين. كما يساعد في إبراز التباين بين هذه الشخصيات، فيسعى إلى تفصيل المزيد من تصرفات كل شخصية وآثارها، وكيف تؤثر مواقفهم في مجريات القصة، مما يرفع من مستوى البناء السردي، إضافة إلى ما يخلقه الاستشراف في هذا السياق من التوقعات التي يُراد للقارئ أن يستشعرها قبل وقوعها، بحيث تظل الشخصيات في تطور مستمر، ويظل تطور الأحداث رهنًا بتصرفاتها وردود أفعالها، مما يعكس جوانب متعددة من الشخصية البشرية مثل الطمع، والتكبر، والتواضع، والإيمان، وكيف تؤثر هذه الجوانب في مآل كل شخصية.

بهذا الشكل، لا يقدم القرآن شخصيات ثابتة أو جامدة، بل يقدم شخصيات ذات أبعاد ودوافع نفسية ومواقف يمكن التنبؤ بها جزئيًا عبر الاستشراف، مما يتيح للقارئ فرصة التفاعل مع هذه الشخصيات بصورة أعمق، حيث يدرك أن الأحداث التي سيتعرض لها الأفراد ليست مجرد نتائج عشوائية، بل هي نتيجة تفاعلات وحسابات وتوقعات تجعل بناء الشخصيات في القصة أكثر حيوية وواقعية.

ومن هذه الاستشرافات التي مهدت لدخول شخصيات جديدة في القصة القرآنية ما جاء في قصة السيدة مريم عندما بشرتها الملائكة؛ حيث

(١) ينظر الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ط١، ١٩٥٠، ص٣٠٧.

يقول: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ[١]﴾، فلم يأت ذكر لسيدنا عيسي قبل ذلك في سورة آل عمران، ولذا مهد هذا الاستشراف القرآني إلى دخوله إلى عامل السرد .

وقد حمل هذا الاستشراف إشارات واضحة عن صفات هذه الشخصية الجديدة في القصة من خلال الإشارة إلى كيفية خلقه. فقد خلقه الله بقوله: (كن)، وأمر الملائكة أن تلقي هذه الكلمة والبشارة إلى مريم، التي مفادها أن ابنها سيكون من أم دون بعل، ولذا نسبه إلى أمه فقال: (عيسى ابن مريم)، وأنه جعله مسيحًا: أي مطهرًا من الذنوب، وسيجعله رسولًا يرسله إلى بني إسرائيل، ذا وجاهة في الدنيا والآخرة، مقربًا منه في يوم القيامة؛ حيث يكون في جواره وكنفه."[٢]

والعجيب أن هذا الاستشراف لم يأتِ في مقطع سردي متصل، بل تخلله استفهام من السيدة مريم في قولها: ﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾، ثم يتابع هذا المقطع الاستشرافي الذي يبين منّة الله على سيدنا عيسى بتعليمه الكتاب وإرساله رسولًا إلى بني إسرائيل. وكأن هذا المقطع الاستشرافي سيق لطمأنة السيدة مريم، والتخفيف عنها، وبث كل معاني الثقة في نفسها لاستقبال هذا الحدث الأكبر. ومن ثم تضافرت هذه الصفات المتعددة لأجل هذا الغرض، وبيان أنه ليس ولدًا عاديًا، بل سيكون له شأن في أمته.

وقد اعتمد القرآن الكريم في كثير من القصص على مخاطبة النبي بذكر شأن الأنبياء، مستخدمًا الاستشراف أداة في هذا التذكير من خلال

(١) سورة آل عمران، آية رقم (٤٥،٤٦).

(٢) ينظر التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ٣/١٦٠وما بعدها بتصرف شديد.

التنويه على اسم هذا النبي، ثم يأتي التفصيل لحياته وأهم المراحل الدعوية أو الوقفات التربوية والإيمانية التي يعالجها. ومن ذلك ما نجد في سورة السيدة مريم في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾، وقوله جل شأنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، وقوله جل شأنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، وقوله جل شأنه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

وهذا الخطاب الاستشرافي يعتمد على ذكر الأنبياء وحدهم في التمهيد لقصصهم، لأن حياتهم تمثل أنموذجًا تامًا في جميع الجوانب العقدية والإيمانية والإنسانية، ومن ثم اكتفي به وحده في التمهيد لقصصهم، اعتمادًا على الخلفيات المعرفية التي يحملها المتلقي لهؤلاء الأنبياء المكرمين، سواء أكانوا أهل كتاب ادعوا في سيدنا عيسى الربوبية، أم في هؤلاء الكفار الذين يستمعون إلى أخبارهم من أهل الكتاب.

والسورة الكريمة تعد بيانًا شافيًا لذكر نماذج من القدرة الإلهية المطلقة، لإقامة الحجة على هؤلاء المشككين في قدرته على إعادة الموتى وبعثهم مرة أخرى. ولذا جاءت السورة الكريمة بنماذج من هذه القدرة المطلقة التي لا تحد بحد ولا تقف عن رسم، المتمثلة في إعطاء الولد لسيدنا زكريا على الرغم من ضعف المصدر وعدم صلاحيته للمستقبل، وإعطاء الولد لمريم بدون مصدر، وإنجاء إبراهيم من النار، وموسى من فرعون، لتظهر طلاقة القدرة في أبهى صورها، وتقيم الحجة على هؤلاء الكفار المعاندين.

ومن هذه النماذج التي مهدت لدخول الشخصية داخل العمل القصصي ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالي: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فقد مهد هذا الاستشراف لدخول سيدنا آدم وذكر قصته.

إن من الوظائف المهمة للاستشراف في البيان القرآني، خصوصًا في القصة القرآنية، هو دوره في تمهيد ودخول الشخصيات داخل النص بشكل فني ومدروس، حيث لا يقتصر على مجرد الإشارة إلى الشخصيات، بل قد يتم من خلال ذكر اسم الشخصية أو تقديم وصف لها أو ذكر ظروف معينة تهيئ القارئ أو المتلقي لاستقبال هذه الشخصية بطريقة تكمل سير الأحداث وتحقق تماسك السرد. كما يعمل الاستشراف هنا على جذب انتباه القارئ أو المتلقي، ويمنحه إشارات مبكرة حول الدور الذي ستلعبه تلك الشخصية في القصة، مما يجعل ظهورها داخل النص ليس مفاجئًا أو غير مبرر، بل يأتي كجزء من بناء الأحداث بشكل متسلسل ومنطقي. كما يساعد الاستشراف في توجيه ذهن القارئ وتوقعاته، إذ يجعله يتهيأ لتطورات الشخصية في السرد، ويخلق نوعًا من التفاعل بين القارئ وبين النص، إذ يصبح متشوقًا لمعرفة كيف ستتفاعل هذه الشخصية مع الأحداث والمواقف التي ستطرأ لاحقًا، وبذلك، يصبح الاستشراف أداة فنية هامة في تحضير الشخصية داخليًا في السياق النصي، ليعكس قدرتها على التأثير في الحركة السردية وتطوير الأحداث بشكل يتماشى مع طبيعة السرد القرآني، ويحقق غاياته البيانية والبلاغية.

٤- <u>التنبؤ بمصير الشخصيات داخل القصة القرآنية.</u>

من أهم خصائص التي يقوم بها الاستشراف داخل النص السردي في القصة القرآنية هو الإخبار عن مصير الشخصيات، سواء أكان مصيرًا إيجابيًا أم سلبيًا، في الدنيا أم في الآخرة، وهو مصير لابد من وقوعه وتحققه

(١) سورة البقرة ، آية رقم (٣٠).

في البناء السردي، لأن مصدره إلهي، ومن ذلك ما جاء في تأويل رؤيا السجينين اللذين توجدا مع سيدنا يوسف ﷺ بعد أن رأى كلٌ منهما رؤيا منامية فقصها على سيدنا يوسف ﷺ فأولها لهما، كما أخبرنا سبحانه في قوله تعالي: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (١)، وقد تحقق هذا الاستشراف المستقبلي لهذين السجينين، فعاد أحدهما إلى عمله مرة ثانية ساقيًا للملك بعد أن ظهرت براءته، وصلب الآخر كما جاء في تأويل هذه الرؤيا؛ ولذلك ختمت هذه الآية بهذا اليقين القاطع لكل شك، فما أخبر به واقع لا محالة.

وتأويل سيدنا يوسف ﷺ يشتمل على أدب نبوي راقٍ، حيث لم يصرح للسجينين بنهاية كل واحد منهما، بل استخدم الألفاظ المبهمة (أحدكما – الآخر) دون تعيين، ليكون هذا أرفق بحاليهما، لأن انتظار الموت قبل الموت موت آخر، وعذاب نفسي ربما يفوق الموت نفسه. إضافة إلى بيان هذا الاحترام في مخاطبة من يحتاج إليه في قوله: ﴿يا صاحبي السجن﴾، الأمر الذي ينم عن تواضع جم جبل عليه سيدنا يوسف ﷺ، والإشارة إلى طول الملازمة التي جلبها هذا المكان.

ومن هذه الشخصيات التي أخبر الاستشراف القرآني بما آلت إليه حياتها، شخصية السامري الذي زين لبني إسرائيل عبادة العجل بعد ذهاب سيدنا موسى ﷺ لملاقاة ربه، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ

(١) سورة يوسف، آية رقم (٤١).

عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾[١]. فقد حمل هذا الاستشراف ما آلت إليه شخصية السامري الذي زين لبني إسرائيل عبادة العجل، فعوقب بأن أخرج من بينهم، "وسلبه الله الأنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوسًا ووسواسًا وتوحشًا. فأصبح متباعدًا عن مخالطة الناس، عائشًا وحده لا يترك أحدًا يقترب منه. فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسه، أي لا تمسني ولا أمسك، أو أراد لا اقتراب مني"[٢]، حتى هام على وجهه في الصحراء مع الوحوش[٣]. إضافة إلى هذا العقاب الأخروي الذي لا يستطيع أن يفلت منه أو يخلفه. وإمعانًا في النكاية به، وبيان جرمه أمام عينيه وأعين بني إسرائيل، أخبرنا هذا الاستشراف بمصير هذا العجل الذي اتخذه إلهًا من دون الله، من الإحراق بالنار والنسف في اليم، لبيان عجزه في حماية نفسه، وضلال السامري وغوايته.

ومن هذه الشخصيات التي تنبأ الاستشراف القرآني بمصيرها قوم سيدنا نوح عليه السلام؛ حيث أخبره ربه بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧)﴾[٤] . ولما كان هذا الاستشراف مقطوعًا بوقوعه، فإن هلاك هؤلاء الكفار قد حان موعده. ومن ثم، فإن الله أمر سيدنا نوحًا عليه السلام بما يجب عليه فعله من خلال استشراف آخر يبين له طريق النجاة، وهو بناء السفينة. وهذا الأمر جعل هؤلاء الكفار يسخرون منه كلما مروا

(١) سورة طه، آية رقم (٩٧).
(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢٩٨/١٦.
(٣) ينظر تفسير القرطبي ، ٢٤١/١١.
(٤) سورة هود، آية رقم (٣٦،٣٧).

عليه. ولذلك، تجلت عناية الله بسيدنا نوح في صنع هذه السفينة، حيث صنعت برعاية الله وحفظه، حتى تستطيع مقاومة الأمواج العاتية بعد ذلك.

وأسلوبا النهي الواردان بعد كل استشراف يكشفان عن دلالات وإشارات مهمة في هذا الخطاب القرآني. فبعد الاستشراف الأول جاء هذا النهي في قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ تسلية لقلب سيدنا نوح عليه السلام الذي دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يؤمن منه إلا قليل، على الرغم من قيامه بواجب الدعوة على أكمل وجه، فقد دعاهم ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، وبالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، فلم يلدوا إلا فاجرًا كافرًا. ولذا جاء هذا النهي تخفيفًا لما قد يلحقه من حزن على هذا الجهد المبذول، وتلك السنوات التي قضاها في دعوة قوم قد حان وقت إهلاكهم. ثم جاء هذا النهي الثاني في قوله: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ ليمهد إلى نهاية هؤلاء القوم الذين كفروا في هذا الاستشراف النهائي في قوله: ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، ويكون الأمر بصنع السفينة لهذه النهاية المأساوية التي يستحقها هؤلاء الكفار.

لقد حملت كثير من الاستشرافات في القرآن الكريم على وجه العموم، والقصة القرآنية على وجه الخصوص، بيانًا واضحًا لنهاية شخصيات العمل القصصي، الأمر الكاشف عن إعجاز قرآني واضح، لتحقق وقوع هذه الاستشرافات. وتلك خصيصة اختص بها القرآن دون غيره؛ لأن القصة القرآنية تنطلق من واقع حادث، بخلاف غيرها التي تبنى على خيالات وتصورات إنسانية بعيدة عن الواقع.

٥- <u>سدُّ الفجوات الحكائية.</u>

لا يستطيع الكتاب حكاية الأحداث بترتيبها وتسلسلها كما هي في الواقع؛ وذلك لوجود عدة أحداث – ربما – تقع في وقت واحد، ولا يستطيع

الكاتب تسجليها على الورق في الوقت نفسه. فيلجأ إلى ما يعرف بالتذبذب الزمني من خلال الرجوع إلى الماضي أو استشراف المستقبل، ومن ثم تحدث بعض الفجوات الحكائية في النص السردي. فيقوم الاستشراف في بعض الأوقات بسد هذه الثغرات، ويضطلع بهذه المهمة الوظيفية. ومن ذلك ما جاء عندما طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يختار لهم ملكًا يقاتلون تحت رايته، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.(١)

فحينما طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يختار لهم ملكًا يقاتلون تحت رايته، اختار لهم طالوت ملكًا، غير أنهم اعترضوا عليه وقالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾. فأعلمهم نبيهم أن الله قد أعطاه صفات تؤهله للملك، من بسطة في العلم والجسم. ومن ثم طالبوا من نبيهم بآية واضحة قاطعة تدل على أحقيته بهذا الملك. وهذه فجوة لم يُذكر النص عنها قبل ذلك، فجاء هذا الاستشراف لسد هذه الثغرة الحكائية، موضحًا ضمنًا أنهم طلبوا هذه الآية الدالة على أحقية طالوت في الملك. ولذا فقد أخبرهم الله من خلال هذا الاستشراف بأن آية ملكه هي أن ينزل عليهم التابوت في سكينة من ربهم، وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون، تحمله الملائكة.

وفي قصة أصحاب الكهف، تحمل فجوات حكائية كثيرة بداية من أسمائهم وطبقاتهم الاجتماعية وعددهم، مما يجعل الحكاية مليئة بالفجوات السردية. ومن ثم يأتي هذا الاستشراف القرآني حاكيًا اختلاف الناس حولهم، مخبرًا رسوله بأسرارهم، طالبًا عدم سؤال أهل الكتاب عنهم، فيقول: ﴿قُلْ رَبِّي

(١) سورة البقرة، آية رقم (٢٤٨).

أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[1]. ومن ثم يعمل هذا الاستشراف القرآني على سد كل هذه الفجوات التي يمكن أن يخلفها السرد عن حكاية أصحاب الكهف، وبيان أن علم قصتهم بكل تفاصيلها هو من الغيب الذي أظهره الله لبعض عباده. ومن ثم يجب علينا الاكتفاء بما وصل إلينا من معلومات عن أصحاب الكهف.

وهذا يعطينا إشارة إلى أن العبرة ليست بذكر أسمائهم، ولا معرفة صفاتهم، ولا النص على طبقتهم؛ فإن ذلك لا يفيدنا شيئًا لا من الناحية الفنية ولا التربوية ولا التعبدية. بل العبرة فيما قاموا به من أعمال جليلة وتضحيات كبيرة من خلال مخالفة هذا المجتمع الذي عبد آلهة غير الله، وتلوث بالشرك والكفر، وانطفأ نور الإيمان في قلوبه. ومن ثم، جاء ذكرهم في القرآن الكريم كأنموذج لمخالفة العادات والمجتمعات، تلك الفتنة التي التهمت كثيرًا من البشر، وصاروا إلى ما صاروا إليه. حتى حكى القرآن الكريم شيئًا من ذلك الذي كان سببًا قويًا في ضلال قريش وأتباعها، من خلال التمسك بعادات المجتمع وما كان عليه آباؤهم.

إن طبيعة الاستشرافات أن تثير كثيرًا من الأسئلة في ذهن المتلقي، التي تخلق حالة من الظمأ المعرفي للتطلع إلى تلك الأحداث التي ستقع من خلال توقعها، بل ربما تحتاج إلى تفسير لها، فتنفتح فجوات في لحمة السرد. من ثم يأتي استشراف آخر ليمهد إلى تلك الإجابات التي تطفئ ظمأ المتلقي، كما جاء في رحلة سيدنا موسى مع الخضر؛ حيث مثلت تلك الأحداث التي جرت علامة فارقة في ذهن سيدنا موسى من خلال قتل الغلام، وخرق السفينة، وبناء الجدار. تلك الأمور التي خالفت تعاليم التوراة

(١) سورة الكهف، آية رقم (٢٢).

التي يحفظها سيدنا موسى ويعلمها لبني إسرائيل، أو الاستحسان والقبح البشريين لهذه الأحداث. ومن ثم فقد احتاجت هذه الأحداث إلى تفسير، ليأتي هذا الاستشراف الذي يمهد إلى حلها، والإجابة عليها، ويكون بمنزلة التوطئة لهذا التفسير كما في قوله: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[1]. كما تأتي هذه الاستشرافات لتسد الفجوات التي تثيرها التنبؤات بما سيحدث في المستقبل، كما في قصة سيدنا يوسف عندما رأى سجود الكواكب والشمس والقمر في منامه. فتفتح هذه الرؤيا الاستشرافية فجوات سردية حول طبيعة الأحداث التي لم تتحقق إلا في نهاية القصة الكريمة، من خلال استشرافات متعددة، في بناء سردي محكم صعودًا ونزولًا، حتى يستوي هذا البناء على سوقه.

إن من يتتبع حركة الاستشرافات في القصة القرآنية سيلحظ أنها تؤدي وظيفتها الفنية بأعلى درجات الإتقان، حيث لا تترك أي فجوة أو ثلمة في السرد إلا وقد سدت، ولا سؤالًا ناتجًا عن تسلسل الأحداث الاستشرافية إلا وأجاب عليه. بهذا الأسلوب، يتحقق التكامل بين الأجزاء ويظهر العمل القصصي في صورته الكاملة والمحكمة البناء.

(١) سورة الكهف، آية رقم (٨٧).

المبحث الثالث: سمات الاستشراف خصائصه الفنية

انفرد الاستشراف في القصة القرآنية بسمات فنية غاية في التميز، تعكس براعة النص القرآني في الجمع بين العمق التعبيري والدقة السردية بحيث لا تقتصر هذه السمات على الجانب الجمالي فحسب، بل تمتد لتؤدي أدوارًا فنية ومعرفية تعزز من قوة النص وسلاسة تفاعله مع المتلقي. فهو إحدى الركائز الأساسية التي تُبرز بلاغة النص القرآني في السرد؛ لأنه ليس مجرد تقنية زمنية تُشير إلى أحداث مستقبلية، بل هو عنصر فني يوظف الزمن لإثراء النص وإحكام بنيته. ويتجلى في القصة القرآنية بوصفه أداة تخدم السرد على مستويات متعددة، فهو يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل بانسجام محكم، ويخلق شبكة زمنية متكاملة تجعل القصة متسقة في بنيتها ومترابطة في أجزائها.

وهذا الأسلوب الفريد لا يقتصر على الإخبار عن المستقبل فحسب، بل يتعداه ليحقق أهدافًا جمالية ومعرفية تُثري النص. فمن خلال الاستشراف، يقدم النص القرآني إشارات دقيقة تكثف المعاني وتختصر الأزمنة دون أن تخل بالسياق أو تفقد النص تماسكه. كما يسهم الاستشراف في إعداد المتلقي نفسيًا وفكريًا لاستقبال الأحداث المستقبلية، مما يزيد من تشويق النص ويُثري تجربته الفنية.

إن دور الاستشراف في القصة القرآنية يتجاوز كونه مجرد تقنية فنية إلى كونه عنصرًا يعبر عن إعجاز النص في تقديم المعاني بدقة متناهية وبلاغة آسرة. فهو يكشف عن الحتمية التي يحملها النص القرآني، ويؤكد مصداقية الأحداث المستقبلية بوصفها مستمدة من علم الله الشامل، ولذلك، فإن السمات التي اتسم بها الاستشراف في القصة القرآنية تُعد شاهدًا على عظمة هذا الأسلوب وأهميته في صياغة القصة، مما يدفعنا إلى التوقف عند هذه السمات لتأمل جمالياتها ووظائفها العميقة التي جاءت كالتالي:

١- ربط العمل السردي.

يعد الزمن إحدى الخيوط الأساسية التي تربط بين عناصر العمل الأدبي وتنسق بينها، فهو الإطار الذي يحيط بكل تفاصيل السرد ويمنحها تسلسلاً منطقيًا، ومهما حاول الكاتب أن تلاعب به أو يقدمه بأشكال متداخلة أو غير خطية؛ فإنه يبقي في جوهره هو المحور الذي تلتقي فيه كافة الأحداث والشخصيات، حيث يمكننا أن نلتقط هذه الخيط الزمنية ونعيد ترتيبها؛ لتكتمل الصورة السردية محكومة بقدرة الكاتب على ضبط هذه العلاقات الزمنية بما يتماشى مع التطور الطبيعي للأحداث، وبما يضمن انسجامًا بين جميع الأجزاء، ليصل القارئ إلى نقطة النهاية مع الفهم الكامل والمترابط لما جرى؛ وذلك لأن العملية السردية "ألصق أكثر الأنواع الأدبية التصاقا بالزمن"(١)، ومن ثم فإن هذا الأنظمة الزمنية "تتفاعل مع عناصر السرد جميعها، مستندة في هذا التفاعل والتناغم إلى علاقات التأثير والتأثر المتبادلة حتى يستقيم نسق السرد داخل العمل السردي."(٢)

والاستشراف بطبيعته أداة زمنية يستطيع الكاتب من خلاله تحقيق أهداف معينة تستدعيها حبكته القصصية، فهو يمثل عنصرًا مهمًا في ترابط النص السردي على الرغم من العمل على خلخلة الرتابة الزمنية إلا أنه "يخلق عنصر التشويق الناتج عن التعامل الفني مع عنصر الزمن"(٣) من خلال القفز إلى أحداث مستقبلية تداعب مخيلة القارئ وتحفزه للولوج إلى عالم القصة الداخلي.

---

(١) بناء الرواية في ثلاثية نجيب محفوظ، د. سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤، ص٢٧

(٢) السابق، ص٢٧.

(٣) مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية العربية المعاصرة، د. عبد الصمد زايد، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٨، ص٧.

واستنادًا إلى طبيعة الاستشراف الزمني فإننا نستطيع أن نقف على أي أنموذج، لنتعرف إلى دوره في ترابط أجزاء النص، وربط السابق باللاحق والإشارة إليه، غير أننا سنقف مع هذا الاستشراف الذي جاء في سورة يوسف من خلال تلك الرؤى المنامية التي توزعت على السورة الكريمة ببلاغة عالية، وفنية مقصودة: بداية، ووسطًا، ونهاية؛ لنعرف قيمة هذا الاستشراف ودوره في ترابط النص القرآني الكريم.

فقد افتتحت السورة الكريمة برؤيا منامية استشرافية، وهي في جوهرها وسيلة فنية تعكس براعة السرد القرآني في تكثيف الدلالات وإثارة الذهن للتأويل؛ حيث تتيح هذه الرؤيا للمتلقي إمكانية التفاعل مع رموزها واستخراج معانيها العميقة، وفي الوقت ذاته، لا تترك الآيات القارئ في حالة من الغموض، بل تسير به بخطى واثقة نحو فهم مدلولات هذه الرموز، ومن خلال توجيهٍ إلهي، يفتح السرد بابًا جديدًا يعرض تفسير سيدنا يعقوب للرؤيا، الذي يتسم بحذرٍ عاطفي ومعرفي؛ إذ يطلب من ابنه يوسف ألا يقصّ رؤياه على إخوته، لئلا تحفز في نفوسهم الحسد والتنافس، فيسعون للإضرار به، رغبة منهم في النيل من المنزلة الرفيعة التي سيصل إليها يوسف، والتي تضعه في مصاف الأنبياء والأصفياء كما كان آباؤهم.

وبينما تسلط هذه الإشارات الأولى الضوء على مكانة يوسف وحقد إخوته عليه، يتفجر السرد ليكشف تفصيلات جديدة تدفع القارئ إلى فهم الأحداث عبر مشاهد متتالية تُظهر تطورًا منطقيًا في سياقها. فتبدأ القصة من تخطيط إخوته للتخلص من يوسف، مرورًا بالكذب على أبيهم، ثم إلقائه في الجب وبيعه في مصر، وصولًا إلى تعرضه لعشق امرأة العزيز ومحاولاتها الفاشلة، وصولًا به إلى السجن.

وبمجرد دخول يوسف السجن، يظن المتلقي أن الأحداث قد اقتربت من نهايتها، وأن مصير يوسف قد حُسم وراء قضبان السجن. غير أن هذا

التصور يتغير بشكل مفاجئ عندما تظهر الرؤيا الاستشرافية الثانية التي يراها السجينان داخل السجن، فتلعب هذه الرؤيا دورًا في إعادة إشعال فتيل الأحداث. وعندما يطلب يوسف من الناجي منهما أن يذكره عند الملك، يبدو أن الأحداث تسير في اتجاه جديد، إلا أن مشيئة الله تتجلى عندما ينسى السجين ذكر يوسف، وتعود الأحداث إلى حالة من الركود، ليشعر المتلقي أن صفحة يوسف قد طويت. بيد أن الرؤيا الثالثة تأتي لتعيد الأمل وتبعث الحياة في السرد من جديد، حيث يتحول يوسف إلى الرجل الذي يتحكم في خزائن مصر، مما يعكس التحول الدرامي الهائل في مجرى القصة.

وما إن تتشابك خيوط السرد مجددًا، حتى يظهر تأثير الرؤيا الملكية في مسار الأحداث، حيث يجيء إخوته إلى مصر في زمن القحط. هذه العودة تشكل نقطة مفصلية لاستكمال الأحداث، حيث يعيد يوسف ترتيب الأدوار ليحقق الرؤيا الأولى التي بدأت السورة بها. وها هنا يظهر الإعجاز السردي في البناء الدائري، حيث تبدأ السورة بمشهد افتتاحي يعود في النهاية ليُحقق على أرض الواقع، فتتحقق الرؤيا الأولى في قوله تعالى:﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[1]

وفي هذا السياق، يُظهر البناء السردي الاستشرافي في السورة قدرة فريدة على استخدام الزمن لبناء تتابع متقن للأحداث، محققًا بذلك تناسقًا وتناغمًا بين البداية والنهاية، كما يكشف لنا هذا الاستشراف عن أهمية الرؤى في توجيه النص، حيث تعمل هذه الرؤى على الربط بين الماضي

(١) سورة يوسف، آية رقم (١٠٠)

والمستقبل في صورة دائرية، تحقق التوازن بين التوقع والواقع، كما تكشف عن دور الاستشراف في بناء حبكة قوية تدفع الأحداث إلى ذروتها، لتكتمل الصورة القرآنية على نحو بديع يركز على تحليل العناصر السردية، دور الاستشراف في بناء الحبكة، وكيف يعكس القرآن البنية الدائرية للأحداث مع الحفاظ على الجوهر الفلسفي والبلاغي للنص.

٢- مشهدية الاستشرافات في القصة القرآنية:-

من الأمور اللافتة للنظر في الاستشرافات الواردة في القصة القرآنية أنها اعتمدت على مشهدية الأسلوب في عرضها على المتلقي، ولذلك عن طريق "المقاطع الحوارية التي تأتي في تضاعيف السرد، والتي تبطئ حركة السرد ليتطابق زمن القص مع زمن الحكاية."[١] ؛ حيث يعمد الراوي إلى اختيار المواقف المهمة من الأحداث ويعرضها عرضًا دراميًا أمام عينيّ المتلقي موهمًا إياه بتوقف حكرة السرد.[٢] وقد أطلق النقاد على هذه التقنية بالمشهد "لأنّها تخص الحوار، حيث يغيب الراوي ويتقدّم الكلام كحوار بين صوتيْن. وفي مثل هذه الحال، تعادل مدة الزمن على مستوى الوقائع الطول الذي نستغرقه على مستوى القول، فسرعة الكلام هنا تطابق زمنها أو مدتها. كأنّ القصّ مشهد نُصْغي إليه، وهو يجري في حوار بين شخصين يتخاطبان."[٣]

وتأتي أهمية الحوار في الأعمال الأدبية؛ لأنه يمثل "نقلاً مباشرًا حيًّا للأحداث، وليس تقريرًا تُسْرَد به حادثة ما، لكنّها الحادثة بعينها تكشف

(١) البناء الفني في الرواية العربية في العراق، عبد الله إبراهيم، مرجع سابق، ص ٥.

(٢) مدخل إلى نظرية القصة، سمير المرزوقي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦، ص ٨٩

(٣) تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، يمنى العيد، ط١، دار الفارابي/ بيرقت، لبنان، ١٩٩٠، ص١٢٧.

بوضوح أمام عيني القارئ."[1]، إضافة إلى أنه "يمنح الشخصية مجالاً للتعبير عن رؤيتها من خلال لغتها المباشرة، فتعكس وجهة نظرها من خلال حوارها مع الآخرين ومع الذات، مما يعمل على كسر الرتابة في لغة الخطاب الأدبي."[2]

وتتجلى قيمة الحوار في الاستشرافات القرآنية في تصوير المواقف والأحداث وكأنها تُعاش في لحظتها، مما يعمق إحساس المتلقي بالواقع ويحفزه على التفاعل والتوقع لمجريات الأحداث التالية، ولا تقتصر هذه الاستشرافات على عرض المواقف فقط، بل تترك الشخصيات تعبر عن مشاعرها وتفاعلاتها بحرية تامة، مما يضفي على النص حيوية وصدقية. ومن بين هذه الاستشرافات، يبرز مشهد الحواريين مع سيدنا عيسى عليه السلام، حين طلبوا منه أن يسأل ربه مائدة من السماء في قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)﴾[3]؛ حيث يتضمن هذا الطلب إشارة إلى الحاجة الماسة إلى الدليل المادي لإثبات الإيمان، ويعكس بوضوح

(١) أسلوب كتابة الفن القصصي، ليون سرمليان، تر: ميادة نور الدين، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، ع ٢٤، ٢٠٠٣، ص١٨.

(٢) الزمن في الرواية العربية، مها قصراوي، دار الفارس، الأردن، ٢٠٠٤ ، ص٢٣٦.

(٣) سورة المائدة، آية رقم (١١٢– ١١٥).

طبيعة التردد والشك الذي يساور هؤلاء القوم، على الرغم من معايشتهم للمعجزات التي أجراها عيسى، الأمر الذي يعطي صورة مقلقة عن الإيمان المشروط بالمعجزات، وهو ما يفتح الباب لفهم أعمق لطبيعة التفاعل بين الإنسان والوحي الإلهي، حيث يصبح الإيمان في هذه اللحظة مرهونًا بالمشاهد الحسية التي قد تُضعف اليقين الروحي.

وقد كشف هذا المشهد الحواري لنا عن طبيعة الأحداث المستقبلية التي يطلبها الحواريون من سيدنا عيسى عليه السلام من خلال طلبهم مائدة تنزل عليهم من السماء؛ لتكون عيدًا لأولهم وآخرهم لهم، وعلامةً تأكد لهم أنهم أهل لمصاحبة نبيهم، وإشارةً إلى قبول صيامهم وأعمالهم، ودليلًا قاطعًا على صدق نبيهم(١)؛ إضافةً إلى ما يعكسه هذا الاستشراف من شدة فقرهم وحاجتهم إلى الطعام؛ ولذا "سألوه أن ينزل عليهم مائدةً كل يوم يقتاتون منها، ويتقوون بها على العبادة"(٢)، غير أن سيدنا عيسى خاف أن يكون هذا الذي طلبوه – إن تحقق لهم – فتنةً لهم، ومن ثم دعاهم إلى تقوى الله ومخافة عقابه.

وجواب سيدنا عيسى لهم فيه استعظام لما طلبوه؛ لما يوحي هذا الخطاب الواقع منهم بالشك المنافي لليقين التام الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، فضلاً عمن عايش الأنبياء وشاهد المعجزات بنفسه، ومن ثم طالبهم سيدنا عيسى بالتوبة والرجوع إلى الله سبحانه. وحتى على القراءة الأخرى (هل تستطيع ربك) بالتاء ونصب لفظ الجلالة، والمعنى هل تستطيع أن

(١) تفسير القرطبي، ٣٦٦/٦.
(٢) تفسير ابن كثير، ٢٠٢/٣.

تدعو ربك فيستجيب لك[1]؛ بأسلوب الاستفهام المشوب بالتحدي، فإنه ينافي الأدب الواجب في مخاطبة الأنبياء.

ويبدو أن الجوع قد بلغ من الحواريين مبلغًا عظيمًا حتى كاد الإيمان يتصدع في قلوبهم؛ ولذا فقد أصروا على نزول هذه المائدة؛ ليتحقق لهم الأمن الغذائي من الأكل من تلك المائدة، والأمن النفسي والإيماني بمشاهدة نزولها، واليقين التام بصحة ما هم عليه، ويشهدوا شهود عين بتلك الحقيقة فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ويشهدوا بصدق نبوة عيسى للعالمين، ومن ثم لم يجد سيدنا عيسى من سبيل إلا أن يدعو الله لهم بنزول هذه المائدة حتى تكون عيدًا وآية "لتدل على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك لدعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك." [2]

لقد كشف هذا الحوار الاستشرافي عن تلك المعاناة النفسية التي يعيشها هؤلاء الحواريون على الرغم من معاينتهم معجزات النبي عيسى من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، غير أن ما أصابهم من جوع كان كفيلًا بتزحزح الإيمان في قلوبهم؛ ولذا فقد توعد الله في نهاية القصة من كفر منهم بالعذاب الأليم الذي لم يعذبه أحدًا في العالمين.

وإذا كان هذه الاستشراف الحواري السابق قد كشف لنا عن تزحزح الإيمان في قلوب الحواريين حتى احتاجوا إلى آية ترسخه في قلوبهم، فإن الاستشراف الذي جاء في سورة الصافات على النقيض من ذلك؛ حيث يكشف لنا هذا الاستشراف من خلال حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع ابنه إسماعيل عن الإيمان التام، والتسليم المطلق لأمر الله ﷻ في قوله تعالي:

(١) تفسير الطبري، ٣١٨/١١ وما بعدها.
(٢) تفسير ابن كثير، ٢٠٢/٣.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(١)

والمتأمل في هذا الحوار لا يمكنه إلا أن يلحظ هذا التباين العميق بين الحاجة الماسة التي كان يشعر بها سيدنا إبراهيم عليه السلام تجاه ابنه، الذي أصبح بعد أن رُزق به في سن متقدمة سندًا وعونًا له، وبين تسليمه المطلق لأمر الله، وانقياده الكامل له. فقد بلغ هذا الابن لديه منزلة عظيمة، وصار مصدرًا من مصادر الأمل والراحة، حتى أصبح يعتمد عليه في بعض شؤون حياته. ومع ذلك، فقد اختار إبراهيم عليه السلام أن يقابل هذا التعلق العاطفي الكبير بالتسليم التام، في تجسيد نادر للطاعة بلا حدود أو اعتراض. وإذا كانت الرؤيا التي رأها ما هي إلا حلم، فقد كانت بمثابة تأكيد عميق على يقينه المطلق في الاستجابة لأمر الله، دون أدنى تردد أو شك. كان بإمكانه أن يطلب تأكيدًا آخر من الله أو يعبر عن ضعفه البشري أمام هذا الامتحان القاسي، لكن لم يحدث شيء من هذا، بل بدأ إبراهيم عليه السلام بتنفيذ أمر الله فورًا، ليُظهر أسمى صور الإيمان والرضا.

وفي هذا السياق، يظهر الحوار بين الأب وابنه في أبهى تجلياته الإنسانية، إذ يتخذ نداء سيدنا إبراهيم "يا بني" طابعًا من الرفق والحنان، ويعكس عمق الحب الأبوي، وهو حب يتجاوز العاطفة إلى حالة من التضحية الفائقة. فالأب لا يستدعي ابنه فقط ليحدثه عن أمر خطير، بل ليطلب منه قبول ذبحه، في مشهد من أعظم مشاهد الفداء، والابن من جانبه، يجيب بكل احترام وسمع وطاعة، بل ويحول رؤيا والده إلى أمر

(١) سورة الصافات، آية رقم (١٠٢).

واجب التنفيذ.(يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)، ليترجم بذلك الروح الطيبة من الابن، التي تبث في القلب الإيمان واليقين المطلق.

وإذا تأملنا في هذا التفاعل بين الأب وابنه، نرى أنه ليس مجرد محادثة عابرة، بل هو تعبير عن التلاحم الروحي والجسدي والنفسي بينهما، والذي يجعل الابن يتحول إلى جزء من رؤيا والده، ليس فقط ليؤكد له الدعم النفسي، بل ليشارك في تصعيد هذا الفداء على مستوى الأمانة الإيمانية والصدق المطلق. إنها علاقة حب تتجاوز العاطفة، وتصل إلى مستوى الشهادة على صبرهما جميعًا أمام اختبار الله العظيم.

إن هذه الحوارات الاستشرافية في القصة القرآنية لا تقتصر على نقل أحداث بل تتجاوزها لتكشف عن الجوانب العميقة في النفس البشرية، فتجعلنا نرى هذه الشخصيات بأبعادها المختلفة. فالحوار ليس مجرد وسيلة سردية، بل هو أداة فاعلة لتوصيل الإحساس الدرامي والواقعي للأحداث، حيث يتفاعل المتلقي مع الحدث على نحو شعوري ومباشر، ليعيش مع الشخصيات، ويشترك معها في معاناتها وتحدياتها، مما يجعل من هذه الحوارات أداة محورية في بناء التجربة الإنسانية القرآنية.

٣- <u>تلخيص فترات زمنية في حياة الشخصيات.</u>

من أهم سمات الاستشراف القصصي أنه يعمل على تلخيص فترات زمنية طويلة أو قصيرة في عبارات موجزة، فيقوم "بسرد أيام عديدة أو شهور أو سنوات من حياة شخصية بدون تفصيل للأفعال أو الأقوال، وذلك في بضعة أسطر أو فقرات قليلة"[١] مشيرًا إلى أهم الأحداث الواقعة؛ من خلال "ضغط مدة زمنية طويلة في مقطع نصي قصير، فتكون مساحة النص

(١) خطاب الحكاية، جيرار جينيت، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٠٩.

أصغر من زمن الأحداث في القصة." [١] ومن ثم يعمل الاستشراف على تسريع وتيرة الأحداث ونقلها إلى بؤرة التعقيد أو الحل.

من بين الاستشرافات القرآنية التي تلخص أحداثًا في حياة الشخصيات، نجد قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل عندما طلب منهم دخول الأرض المقدسة. إذ كان ردهم بالامتناع الشديد، حتى حكم الله عليهم بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، فقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

فهذه الآية الكريمة لم تُفصِّل لنا كيف قضوا تلك الأربعين سنة في التيه، بل اقتصرت على تلخيص هذه الفترة الطويلة من حياتهم في كلمات قليلة، ما يجعل الاستشراف القرآني هنا مركَّزًا، يعكس تكثيفًا شديدًا وضغطًا للمعاني المتراكمة.

إن اختيار الأربعين عامًا ليس عبثًا، بل يحمل حكمة ربانية عميقة، فهي فترة كافية لتغيير جيل تمرد على أوامر الله، وتجرأ على أنبيائه، ورفض الانقياد له حتى وصل الأمر إلى ذروته. فقد قالوا لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، مما يعكس أقصى درجات العناد والجُرأة. فكان العقاب الإلهي أن يظل هذا الجيل في التيه حتى ينقرض، ليأتي جيل آخر أشد إيمانًا ويقينًا، قادرًا على أن يتغلب على أعدائه ويستحق نصرة الله.

يبدو أن الخوف من المستقبل، والتشاؤم الذي استشرفه بنو إسرائيل من آفاقه، قد استحوذ على قلوبهم حتى استنفروا بكل أساليب التوكيد في

(١) ينظر بناء الرواية المصرية، عبد الفتاح عثمان، ط. مكتبة التقدم، القاهرة،١٩٨٢، ص٧٦.

(٢) سورة المائدة، آية رقم (٢٦).

قولهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾، ليقطعوا بذلك كل سبيل على نبيهم لإقناعهم. فكان هذا التمرد هو السبب في عقابهم بأن يعيشوا في تيه حقيقي، يعكس حالة من القلق النفسي الذي فاق العقل والتفكير الصحيح. فكان جزاؤهم أن يبقوا في هذا التيه حتى يموتوا، ويُخلف الله من يستحق نصره ومساندته.

من بين الاستشرافات القرآنية التي اختزلت حياة الشخصيات، نجد ما جاء في قصة سيدنا يوسف عليه السلام حين فسر رؤية الملك، حيث قال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾.[1] ففي هذا الاستشراف، نجد أن القرآن الكريم قد اختصر حياة المصريين في خمس عشرة سنة، ابتدأت بسبع سنوات من الرخاء والازدهار حيث تزرع الأرض بلا انقطاع، ثم تُترك المحاصيل في سنابلها باستثناء القليل مما يُؤكل. هذه السنوات السبع كانت بمثابة فترة الاستعداد للسنوات العجاف المقبلة، والتي ستعقبها سبع سنوات من القحط والشدائد حيث تأكل المجاعة ما تم تخزينه في تلك السنين. وفي النهاية، تنتهي هذه السنين العجاف بعام يُغاث فيه الناس، حيث ينعش المطر الأرض وتعود الحياة إليها، ويعصر الناس الزرع كما كانوا يفعلون في السابق.

إن هذا الاستشراف القرآني لم يكن مجرد سرد لوقائع زمنية، بل كان بمنزلة توجيه عميق للمصريين، محذِّرًا إياهم من أن التركيز على هذا العمل الجليل — الزراعة والتخزين — هو مفتاح النجاة للبلاد من القحط المهلك.

(١) سورة يوسف، آية رقم (٤٧،٤٨،٤٩).

وهكذا، اختصر القرآن مدة خمسة عشر عامًا من حياة المصريين، حيث تجنب سرد الأحداث الهامشية أو التفصيلات التي لا طائل من ورائها، ليبقى التركيز على ما هو جوهري: الحفاظ على الطعام في سنوات الرخاء استعدادًا للسنوات القادمة. وهذا الاستشراف القرآني يعكس أهمية تسجيل الأحداث الكبرى دون الانشغال بالأحداث العابرة، مما يبرز القدرة الربانية على توجيه الناس لما فيه صالحهم في كل زمان ومكان.

ومن أبرز الاستشرافات القرآنية التي اختزلت حياة شخصية مهمة، ما جاء في قصة سيدنا موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾[1]. فهذا الاستشراف يلخص رحلة حياة سيدنا موسى عليه السلام بدءًا من مرحلة الرضاعة وصولًا إلى بلوغه سن الأربعين، حين اصطفاه الله نبيًا ورسولًا. لقد توقف هذا السرد القرآني عند أبرز المحطات في حياة موسى عليه السلام، وهي محطات فارقة مليئة بالأحداث المؤثرة التي شكلت مجريات حياته؛ حيث كانت البداية عندما حُرم عليه الإرضاع، ليتبعه حدث مهم وهو تدخل أخته التي اقترحت من يكفل موسى عليه السلام، ليعود إلى أمه ويكتمل وعد الله لها بإرجاعه. ثم انتقل السرد إلى حادثة قتل موسى للرجل القبطي، والتي كانت السبب المباشر في هروبه من مصر خائفًا، لينتقل بعدها إلى مدين حيث عاش مع النبي شعيب، يعمل لأجل لقمة عيشه ويحفظ نفسه من الفتن.

(١) سورة القصص، آية رقم (٤٠).

والاستشراف القرآني هنا ليس مجرد سرد تسلسلي للأحداث، بل هو تلخيص مكثف يبرز الأحداث الفاعلة والمؤثرة في حياة سيدنا موسى عليه السلام. فهو يختزل تلك الوقائع الكبرى دون الالتفات إلى التفاصيل الجانبية، ليؤكد على المفاصل الحاسمة التي تحدد مسار حياته وتساهم في رسم ملامح شخصيته النبيلة، وتفاعله مع محيطه وفقًا لمشيئة الله.

إن هذه الظاهرة من الاستشرافات القرآنية سمة رئيسة تميز طريقة السرد في القرآن الكريم، حيث يتم تسليط الضوء على أبرز المحطات التي تؤثر بشكل جوهري في الشخصيات، مما يعزز من فهم القارئ لمعنى الأحداث وأبعادها دون الحاجة إلى التوسع في تفاصيل لا تساهم في إبراز الرسالة الأساسية.

٤- <u>التأثر في الشخصيات وحتمية الوقوع.</u>

لعل من أهم ما يتميز به الاستشراف القرآني هو حتمية الوقوع، سواء تحقق هذا الوقوع داخل النص السردي، مما يعرف بالاستشراف الداخلي، أو تحقق في الآخرة أو نهاية القصة، مما يعرف بالاستشراف الخارجي. وهو يعكس خصيصة انفرد بها الأسلوب القرآني، لأنه "يعرض أحداثًا تاريخية وقعت في زمن معين، مع أشخاص معينين... وهذه الأحداث ليست من نسج الخيال، ولا من بنات العقول، ولا من تصورات الأوهام."[(١)]. ومن ثم، يكون التحدي مبنيًا على الإحاطة التامة بتفاصيلها، وهو ما أعجز العرب وغيرهم. ومن ذلك ما جاء في سورة المسد التي تشير إلى موت أبي لهب على الكفر ودخوله النار، في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا

(١) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، الشحات محمد أبو ستيت، ط١، مطبعة الأمانة، شبرا، مصر، ١١٩١م، ص٧.

أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)﴾[١] ، وقد مثلت هذه القصة نوعًا من التحدي، لأنها نزلت قبل موت أبي لهب، ولا شك أنه استمع إليها وعرف مضمونها. وكان يمكن أن يؤمن أو يدعي الإيمان من أجل تقويض فحواها، وإحراج النبي محمد صلى الله عليه وسلم والتشنيع عليه، غير أن هذا كله لم يحدث، بل وقع ما أخبر به الاستشراف القرآني الكريم.

ومن هذه الاستشرافات التي تنبأت بأحداث قادمة، وجرت أحداثها كما أخبر القرآن الكريم، ما جاء في قصة سيدنا موسى مع فرعون عن التقاطه. حيث يخبر سبحانه فيقول: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[٢]؛ فإن آل فرعون عندما التقطوا سيدنا موسى عليه السلام، كانوا يظنون أن هذا الالتقاط سيعود عليهم بالخير، كما عبَّرت عن ذلك امرأة فرعون، حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾. ومن ثم، كان من المفترض أن يحصل لهم المسرة أو النفع بالتقاطه. غير أن القرآن الكريم أخبر، من خلال هذا الاستشراف، بعاقبة هذا الالتقاط، المتمثلة في العداوة التي تحققت بين كليم الله موسى عليه السلام، وبين فرعون وجنوده، والحزن. واللام هنا في قوله: (لِيَكُونَ) هي لام العاقبة، وليست لام التعليل، وبذلك يعكس هذا الاستشراف المفارقة المتضادة بين لحظة التقاطه والنهاية المتوقعة.

ومن خلال تأمل الاستشرافات القرآنية التي تتوزع على محطات مختلفة من القصة القرآنية، نكتشف أنها قد تحققت في الواقع كما وردت في النصوص، مما يثبت صدق الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين

(١) سورة المسد.

(٢) سورة القصص، آية رقم (٨).

يديه ولا من خلفه. وهذا التحقق لا يُقتصر فقط على ما أخبر به القرآن من أحداث مستقبلية بل يمتد ليشمل الاستشرافات التي وردت من جهات أخرى، كالمواقف التي عبرت عنها الملائكة في حوارهم مع الله، حين نبهوا إلى وقوع الفساد في الأرض بسبب بني آدم. على الرغم من أن هذا كان استنادًا إلى طبيعة البشر وتخميناتهم حول عواقب سلوكهم، فقد جاء الواقع مطابقًا لتلك التوقعات، بل وكان أكثر دقة مما يمكن أن يظنه العقل البشري في لحظة معينة.

هذا التطابق بين ما استشرفته النصوص وما وقع فعلاً على الأرض يعكس عمق البعد الإلهي في تدبير الأمور وسبق علم الله بكل شيء. كما أن هذا يسلط الضوء على المفارقة بين قدرة البشر على التنبؤ بناءً على معطيات محدودة وبين علم الله المطلق الذي يحيط بكل شيء في الكون، حيث أظهر القرآن لنا أن ما يبدو أحيانًا مجرد تلميح أو استشراف إنما هو في الواقع إخبار قاطع عن أحداث ستقع بلا شك، مما يعمق إيماننا بالوحي وصدق رسالات الله عبر الأنبياء.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تفيض العطايا والهبات، والصلاة والسلام على أكرم من خلق في الأرض والسموات، سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الممات. وبعد:

فقد تناول هذا البحث إحدى أعمق الخصائص التي يمتاز بها النظم القرآني، وهي استشراف المستقبل في القصة القرآنية، بما يتضمنه من إخبار بما سيحدث في الزمن القادم. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- **الاستشراف القرآني:** هو عنصر رئيس في فهم الزمن القرآني، يسهم بشكل محوري في الإخبار بما سيحدث مستقبلاً، معتمدًا على علم إلهي مطلق يحيط بكافة التفاصيل، من الجزئيات إلى الكليات، مما يُضفي طابعًا مميزًا على النص القرآني. فالخطاب القرآني لا يقتصر على الوصف الظاهر، بل يتجاوز ذلك ليحمل رؤية كونية شاملة ومتكاملة، مما يجعل من القصة القرآنية مرآةً تعكس عظمة العلم الإلهي وصدق وعد الله، إذ تأتي كل الأحداث كما تنبأ بها الاستشراف القرآني.
- **تنوع مصادر الاستشراف:** في القصة القرآنية يتجسد في عدة أبعاد تعبيرية معجزة، منها الرؤى المنامية التي تحمل دلالات درامية عميقة، وإخبار بعض الشخصيات عن المستقبل، أو الإخبار المباشر من الله سبحانه وتعالى. هذه التعددية في الأساليب تسهم في إثراء النص القرآني وتوسيع أفقه التأويلي، مما يعزز قدرته البيانية على مفاجأة المتلقي وإشراكه في العملية الاستشرافية التفاعلية للنص.
- **الاستشراف كآلية تمهيدية:** في القصص القرآني يوجه انتباه القارئ إلى أحداث محورية وشخصيات بارزة، في إطار تشويقي يدفعه لتأمل الإشارات والرموز المشفرة التي تحمل في طياتها ملامح المستقبل. ومن خلال هذه الآلية، يصبح الاستشراف أداة لخلق براعة الاستهلال

وتكثيف المعاني عبر رمزية عالية، مما يدفع المتلقي للغوص في تفاصيل القصة وفهم مغزاها بشكل أعمق.

- **التداخل بين الماضي والمستقبل:** في الاستشراف القرآني لا يقتصر على الإخبار بما سيحدث، بل يمتد ليخلق تواشجًا بين الأزمنة المختلفة، ويغلق الثغرات بين الأحداث السابقة والمقبلة. هذه التقنية تساهم في بناء تكامل سردي يعزز الانسجام الزمني ويصعب على المتلقي الفصل بين هذه الأزمنة، مما يضعه أمام تسلسل منطقي يعتمد على الوحي الإلهي، دون الحاجة لإثبات تفصيلات هامشية.
- **التمهيد الدرامي للأحداث المستقبلية:** يسهم الاستشراف في تسريع الأحداث، مما يجعل السرد ينساب بشكل تصاعدي ومتسلسل، ويمنع الوقوع في المفاجآت غير المبررة. لا يقتصر هذا التمهيد على إعداد القارئ لما سيحدث في المستقبل فقط، بل يساهم أيضًا في منح السرد هيكلًا متينًا يزيد من حركته الدرامية ويضفي عليه نوعًا من الترقب والتشويق. كما يظهر بوضوح في قصص مثل قصة يوسف عليه السلام، حيث لعبت الاستشرافات القرآنية دورًا محوريًا في بناء الحدث.
- **كشف طبائع الشخصيات:** في الاستشرافات القرآنية لا تقتصر الاستشرافات على الإخبار بالمستقبل فحسب، بل هي أداة تكشف عن مكونات الشخصيات النفسية وهوياتها الوجدانية، مما يجعلها أكثر قربًا من القارئ وأكثر قدرة على التأثير فيه. يساعد هذا الكشف المسبق في بناء تفاعلات أعمق بين الشخصية والحدث، كما يُمكّن الاستشراف من تمهيد دخول الشخصيات إلى السرد أو إبراز دورها المحوري في الأحداث.
- **حتمية الوقوع وموثوقية الاستشراف القرآني:** يتميز الاستشراف القرآني بحتمية وقوعه في الواقع، فهو صادر عن علم إلهي مطلق لا يمكن أن يخطئ. الشخصيات القرآنية تخضع تمامًا لما تم الإخبار به في الاستشرافات، دون أي خروج عن الإطار الذي رسمه لها النص القرآني.

وبالتالي، يجسد ذلك العلاقة بين النبوءة والتطبيق الواقعي في الحياة البشرية بشكل مهيب وعميق.

- **التنوع الأسلوبي في الاستشراف** يسهم بشكل فعال في إضافة حركية درامية إلى القصة القرآنية، حيث يعزز جذب انتباه القارئ ويحفزه على التفاعل مع النص على مستوى أعمق. من خلال هذا التنوع، يجد القارئ نفسه مشدودًا إلى التفاصيل الدقيقة التي تسبق الأحداث، ويترقبها بتفاعل دائم مع النص، مما يتيح له متابعة سير القصة وتأويل الأحداث بما يتناسب مع فهمه.
- **التلخيص والضغط الزمني في الاستشراف القرآني**، حيث يُمكن الاستشراف من تلخيص أحداث طويلة وفترات زمنية ممتدة في عبارات قصيرة ومكثفة تحمل دلالات عميقة. من خلال هذا التلخيص، تُوجه الاستشرافات القارئ نحو الأحداث المحورية التي تشكل محطات فارقة في حياة الشخصيات، مما يساعده على التركيز على الأبعاد الجوهرية التي تُنمي حركة السرد، مع تجاهل التفاصيل الهامشية التي لا تسهم في تطور القصة.
- **وفي الختام**، يتضح أن الاستشراف القرآني ليس مجرد أداة للإخبار بما سيحدث، بل هو أداة معرفية عميقة تساهم في رسم معالم الفهم القرآني وتوسيع آفاق تأويله. فهو لا يقتصر على توجيه الزمن والمستقبل فحسب، بل يمثل تكثيفًا معرفيًا يحرك الأبعاد النفسية للشخصيات، ويضيء مسارات القصة القرآنية بمقدرة إلهية فريدة. من خلال هذا، يلمس القارئ عظمة الوحي وعلاقته بكل تفاصيل الحياة.

فهرس المصادر والمراجع

أولا: مصادر الدراسة.

- القرآن الكريم.

ثانيًا: المراجع الدينية (القرآن الكريم والتفسير).

- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير ابن كثير، ابن كثير، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.
- تفسير السعدي، عبد الرحمن السعدي، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، دار الرسالة، ٢٠٠٠م.
- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، تح: أحمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠م.
- تفسير القرطبي، القرطبي، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
- التفسير الكبير، لأبي بكر الرازي، ط٣. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، ط١، دار نهضة مصر، ١٩٩٨م.

ثالثًا: المراجع الدينية (الحديث الشريف).

- الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد، تح: د. علي حسين البواب، ط٢، دار ابن حزم – لبنان/ بيروت، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تح: د. مصطفى ديب البغا، ط٣. دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، دار الجيل – بيروت، ١٣٣٤هـ.
- مسند الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

رابعًا: المراجع المعجمية.

- لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله الكبير، وآخرون، دار المعارف، القاهرة.
- قاموس السرديات، جيرالد برنس، ترجمة السيد إمام، ميرت للنشر والمعلومات، بالقاهرة، ٢٠٠٣م.
- معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون، ط١. دار محمد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠.
- المعجم المفصل في الأدب، محمد التوتجي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.
- معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، ط١، دار النهار للنشر، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢م.

رابعًا: المراجع الأدبية والبلاغية والنقدية.

- أسلوب كتابة الفن القصصي، ليون سرمليان، تر: ميادة نور الدين، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد.
- البداية في النص الروائي، صدوق نور الدين، ط. دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط١، ١٩٩٤م.
- بناء الرواية المصرية، عبد الفتاح عثمان، ط. مكتبة التقدم، القاهرة، ١٩٨٢م.
- بناء الرواية في ثلاثية نجيب محفوظ، د. سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٠م.
- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، حميد لحميداني، ط١، مركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩١م.
- تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، يمنى العيد، ط١، دار الفارابي/ بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

- خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، الشحات محمد أبو ستيت، ط١، مطبعة الأمانة، شبرا، مصر، ١٩٩١م.
- خطاب الحكاية، جيرار جينيت، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧م.
- الرواية العربية الرؤيا والبناء "مقاربات نقدية"، سمر روحي، ط. منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م.
- الزمن في الرواية العربية، مها قصراوي، دار الفارس، الأردن، ٢٠٠٤م، ص٢٣٦.
- الزمن والمكان في قصة العهد القديم، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج١٦، ع٦٥، ١٩٨٥م.
- سيميائية الشخصية الروائية، شربيط أحمد شربيط، ط. جامعة باجي مختار بالجزائر.
- الشخصية في العمل الروائي، محمد نصرالدين، ط٤، دار الفيصل الثقافية، الرياض، ١٩٨٠م.
- الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ط١، ١٩٥٠م.
- القصة والرواية، د. عزيزة مريدن، ط. دار الفكر، دمشق.
- القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، عبد الكريم الخطيب، دار المعرف، بيروت – لبنان.
- مدخل إلى نظرية القصة، سمير المرزوقي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦م.
- مفهوم الزمن ودلالاته في الرواية العربية المعاصرة، د. عبد الصمد زايد، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٨م.
- وظيفة البداية في الرواية العربية، شعيب حليفي، مجلة الكرمل، عدد ٦١، سنة ١٩٩٩م.

References :

- **'awla: masadir aldirasati.**
- alquran alkarim.
- **thanyan: almarajie .**
- 'uslub kitabat alfani alqasasii, liun sirmilyan, tir: miadat nur aldiyn, majalat althaqafat al'ajnabiati, baghdad.
- albidayat fi alnasi alriwayiy, saduq nur aldiyn, ta. dar alhiwar lilnashr waltawziei, surya, ta1, 1994.
- bina' alriwayat almisriati, eabd alfataah euthman, ta. maktabat altaqadumi, alqahirati,1982.
- bina' alriwayat fi thulathiat najib mahfuza, du. siza qasama, alhayyat almisriat aleamat lilkitabi, alqahirati, 1984.
- albana' alfaniyu liriwayat alharb fi aleiraqi, eabd allah 'iibrahim, ta. dar alshuwuwn walthaqafat aleamati, baghdad,1988.
- biniat alshakl alriwayiy, hasan bahrawi, almarkaz althaqafii alearabii, aldaar albayda', 1990m.
- baniat alnasi alsardii min manzur alnaqd al'adbi, hamayd lihmaydani, ta1, markaz althaqafii alearabii, bayrut, 1991m.
- altahrir waltanwiru, altaahir bin eashur, aldaar altuwnusiat lilnashri, tunis, 1984h.
- tafsir abn kathirin, abn kathirin, ta1, dar alkutub aleilmiati, bayrut, 1419hi.
- tafsir alsaedi, eabd alrahman alsaedi, taha: eabd alrahman bin maeala alluwayahaqi, ta1, dar alrisalati, 2000m,
- tafsir altabri, muhamad bin jarir altibri, taha: 'ahmad shakiri, ta1, muasasat alrisalati,2000m.
- tafsir alqurtubii, alqurtibii, ta2, dar alkutub almisriati, alqahirati, 1964.

- altafsir alkabiru, li'abi bakr alraazi, ta3. dar 'iihya' alturath alearabii - bayrut, 1420h.
- altafsir alwasiti, altantawi, muhamad sayid tantawi, ta1, dar nahdat masri, 1998,8
- tiqniaat alsard alriwayiyi fi daw' almanhaj albinywi, yumnaa aleida, ta1, dar alfarabi/ biratti, lubnan, 1990.
- aljame bayn alsahihayn albukharii wamuslmi, muhamad bin fatuh bin eabd allah bin fatuwh bin hamayd tahi: da. eali husayn albawabi, ta2, dar aibn hazm - lubnan/ bayrut, 1423h - 2002m
- khasayis alnuzum alquranii fi qisat 'iibrahim ealayh alsalamu, alshahaat muhamad 'abu stit, ta1, matbaeat al'amanati, shibra, masr, 1191m.
- khitab alhikayati, jirar jinit, tarjamata: muhamad muetasim wakhrun, almajlis al'aelaa lilthaqafati, alqahirati, 1997.
- alriwayat alearabiat alruwya walbinaa' "muqaribat naqdiatun", samar ruhi, ta. manshurat atihad alkitaab alrabi, dimashqa, 2003.
- alzaman fi alriwayat alearabiati, maha qasrawi, dar alfarisi, al'urduni, 2004 , sa236.
- alzaman walmakan fi qisat aleahd alqadimi, majalat ealam alfikri, alkuayta, mij16, ea65, 1985.
- simyayiyat alshakhsiat alriwayiyati, shirbit 'ahmad sharbit, ta. jamieat baji mukhtar bialjazayir.
- alshakhsiat fi aleamal alriwayiy, muhamad nasraldiyn, ta4, dar alfaysal althaqafiati, alriyadi,1980.
- shih albukhari, muhamad bin 'iismaeil albukhari, tahi: du. mustafaa dib albugha, ta3. dar abn kathir, alyamamat - bayrut, 1407 - 1987.
- shih muslmin, 'abu alhusayn muslim bin alhajaaj , dar aljil - bayrut, 1334 hi.

- alfin alqasasiu fi alquran alkarim, muhamad 'ahmad khalaf allah, ta1, 1950.
- qamus alsardiati, jirald birinsi, tarjamat alsayid 'iimam, mirt lilnashr walmaelumati, bialqahirati, 2003.
- alqisat walriwayati, da. eazizat miridin, ta. dar alfikri, dimashqa.
- alqisas alquraniu fi mantuqih wamafhumihi, eabd alkarim alkhatib, dar almaerifi, bayrut - lubnan.
- lisan alearabi, abn manzurin, tah: eabd allah alkabir, wakhrun, dar almaearifi, alqahirati.
- madkhal 'iilaa nazariat alqisati, samir almarzuqi, baghdadu, dar alshuwuwn althaqafiat aleamati, 1986.
- msnid al'iimam 'ahmadu, 'abu eabd allah 'ahmad bin hanbal, taha: shueayb al'arnawuwt - eadil murshidi, wakhrun, ta1, muasasat alrisalati, 1421 hi - 2001 mi.
- almuejam almufasal fi al'adbi, muhamad altuwtuji, dar alkutub aleilmiati, ta1, bayrut, 1993.
- almuejam almufasal fi al'adbi, muhamad altuwtuji, dar alkutub aleilmiati, ta1, bayrut, 1993, ji2.
- maejam mustalahat naqd alriwayati, latif zituni, ta1, dar alnahar lilnashri, bayrut - lubnan, 2002m.
- mafhum alzaman wadilalatuh fi alriwayat alearabiat almueasirati, da. eabd alsamad zayid, aldaar alearabiat lilkitabi, tunis , 1988.
- wazifat albidayat fi alriwayat alearabiati, shueayb halifi, majalat alkarmal, eadad61, sanatu1999m.